سلسلة

غزوات الرسول الأعظم

صلى الله عليه وسلم

الدكتور شوقي أبو خليل





الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٠٤
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ٠٥٨٦,٠٣١
الرقم الدولي للسلسلة: ISBN: 1-57547-102-7
الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-57547-105-1
الرقم الموضوعي: ٢٧٠
الموضوع: السيرة النبوية
السلسلة: غزوات الرسول الأعظم
العنوان: الخندق (غزوة الأحزاب)
التأليف: الدكتور شوقي أبو خليل
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ١٦٠ ص
قياس الصفحة: ١٤× ٢٠ سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

إعادة
١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م
ط١: ١٩٨٢م

مَا بَدَأَ ٱلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم حرباً قطّ ،
اذ كان حريصاً ألا يُراق دم انساني
فهو نبيُّ المرحمة .
ولكن إذا كانت لامحالة واقعة كان رَجُلَها
الأول . . فهو نبيُّ الملحمة .
لقد كان عظيماً في رحمته بالناس ،
عظيماً في استعداده للحرب ، عظيماً في
خططه ، عظيماً في تحقيق النّصر واستثماره .


بسم الله الرحمن الرحيم


غزوة الخندق
غزوة الأحزاب

الخنـدق : غـزوة الأحـزاب / شـوقي أبـو خليـل. ـ دمشـق : دار الفكر ،
١٩٩٦. ـ ١٦٠ ص : ؛ ٢٠ سم.
١ ـــ ٩٥٦,٠٢ خ ل ي خ ٢ ـ ٢١٩,٥ خ ل ي خ
٣ ـــ العنوان ٤ ـ أبو خليل

مكتبة الأسد

ع ـــ ٧١٠ / ٦ / ١٩٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

﴿ وَرَدَّ اللهُ الـــذينَ كَفَروا بِغَيظِهِم لم يَنَـالـوا خَيْراً ، وَكَفَى اللهُ المُـؤْمنينَ القِتَـالَ وَكَـانَ اللهُ قَـوِيّـاً عَزِيزاً ﴾ .

[الأحزاب : ٢٥]

بسم الله ، والحمد لله ، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ، وبعد :

استطاع المسلمون بعد أُحُد جمع صَفِّهم بعد درس قاس ، كان سببه المخالفة لأمر رسول الله ﷺ ، لقد لملموا الجراح ، وأعادوا هيبتهم في نفوس القبائل المجاورة بعد حمراء الأسد .

وفي غزوة الخندق ، غزوة الأحزاب ـ والتي نحن في صدد بحثها في هذا الجزء من (غزوات الرسول الأعظم) ـ سنجد الالتزام التام بأوامر رسول الله ﷺ ، مع الطاعة التامة . ولا يعني ذلك عدم تبادل الرأي وتداول الأمور المستجدَّة ، ولكن إذا تقرر أمر التزم المسلمون . لقد كان ﷺ يجمع أطراف الأُمور كلها بيده

وهذا لا يعني أنَّه لم يكن للمنـافقين دوراً سيئـاً في غزوة الخنـدق ، فسنرى عدم التزامهم أثناء الحفر ، مع دعايـاتهم المثبِّطـة للهمم والعزائم . فدور المنافقين ما زال واضحاً في مجتمع المدينة ، يشـاركهم اليهود بـدور كاد يغيِّر سير الأحـداث ، عنـدمـا نكثـوا بعهـودهم ، وقلبـوا ظهر المجن للمسلمين ، فكان لا بـدَّ بعـد ذلـك من قَصـاص عـادل ، يتنـاسب مـع ضخامة الجريمة ، فكانت غزوة بني قريظة بعد الخندق مباشرة .

وفي حفر الخندق ، عمل رسول الله ﷺ بنفسه ، كأي فرد من أفراد المجتمع . حمـل التراب ، وكلمـا ظهرت صخرة واستعصت على الرجـال ، جـاء ﷺ ليمسـك المعول بيـده الشريفـة ، مـذلِّلاً عقبـات سير العمل ، ولإنجازه في الوقت المناسب قبل مجيء قريش وغطفان ومن معهما .

لقد تمَّ حفر الخنـدق لا خوفـاً من لقـاء قريش ومن معهـا ، ولكن دفعاً للجموع بلا دماء ، وتحقيقـاً للنصر بـأقل خسـائر ممكنـة ، ودليل شجاعـة المسلمين وعـدم خوفهم من الأحزاب ، صـدِّهم المشركين ، وقتل فـارسهم الأول عمرو بن عبـد وُدّ العـامري ، بيـد عليّ رضي الله عنـه ، ودورياتهم المنتظمة التي ضمنت حراسة المدينة من ناحية ، والتي سـدَّت كل الثغرات والمنافذ في وجه فرسان الأحزاب من ناحية أخرى .

ويرفـع رسـول الله ﷺ الروح المعنـويَّـة عنـد المسلمين إلى أعلى القمم ، عندمـا طوى عز وجل لـه الزمن ، فرأى المستقبل ، فقـال ﷺ

في هذه الساعات الحرجة : « أُعطيت مفاتيح اليمن ، أُعطيت مفاتيح الشام والمغرب ، أُعطيت مفاتيح فارس » ، « أبشروا بعون الله ونصره ، إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق ، وآخذ المفتاح .. » .

وهكذا .. فأعمال قريش ومن معها ، صورة لن تمنع مسيرة رسول الله ﷺ ومن معه ، إنها كصورة الأشجار على وجه الأنهار ، تظهر فيها ولا تمنع جريانها وسيرها وخيرها ، ووصولها إلى مصيرها الذي أراده الله عز وجل .

الخندق : معركة فاصلة ثانية في تاريخ الإسلام ، بعد غزوة بدر الكبرى .

لقد أراد المشركون واليهود استئصال المسلمين ، فلو قُدِّر لهم النجاح فيما أرادوا وجاؤوا من أجله ، لتغيَّر مجرى التاريخ كله ، لا أقول مجرى التاريخ العربي فحسب ، بل مجرى التاريخ العالمي ، لارتباط التاريخ العربي الإسلامي بأحداث الساحة العالمية بعدئذ ، ولا سيما مع الدولتين الأعظم : الفرس والروم .



قال حكيم :

« **بالتواضع تكثر المَحَبّة** » : وقد كسب رسول الله ﷺ محبَّة المسلمين في تواضعه ، عندما اشترك بنفسه في حفر الخندق محقِّقاً منتهى (الديمقراطية) .

« **وبالرفق تستخدم القلوب** » : وحقَّق رسول الله ﷺ ذلك عندما هوَّن الأمر على أبي لبابة رفاعة بن المنذر الأنصاري بعد إفشائه سر رسول الله ﷺ عند يهود بني قريظة . وعندما أُصيب سعد بن معاذ فجعله في خيمة في مسجده ، وجعل أوَّل ممرضة في الإسلام رُفَيْدة الأنصارية ، التي أوقفت نفسها لله ، في خدمة الجرحى المسلمين .

« **وبالحكمة تكثر الأنصار** » : وفعلاً بعد الخندق ، بعناية الله وتوفيقه ، وبحكمة رسول الله التي اتبعها في توجيه الأحداث تجاه المنافقين في الداخل ، وتحمل ما يقولون جاعلاً الزمن عامل دحض لافتراءاتهم ، ومبدداً أكيداً لإرجافاتهم ، وجذبت الحكمة التي حققت الانتصارات أفراداً من القبائل كل يوم ، وكان واحدهم يعود إلى قومه ناشراً للدين الجديد بيقين وعزيمة صادقة .

« **وبالوفاء يدوم الإخاء** » : ودام الإخاء الحق بين المهاجرين والأنصار ، لوفاء رسول الله ﷺ لهما في كل أعماله ، فكانت هذه الأُخوة

مِلاطاً بين لبنات أضحت صفاً وبنياناً متيناً ، فانتقلت المبادأة إلى يد المسلمين بفضل تماسكهم ، فانتقلوا بعد الخندق من انتصار إلى انتصار ، حتى شمل الإسلام جزيرة العرب ، لينتقل بعدها إلى العالم . ولو تُرِكَ الأمر إلى :

تكبُّر أبي جهل ، بدل تواضع رسول الله ﷺ .

وإلى تجبُّر أبي لهب ، بدل رفق المؤمنين .

وإلى رعونة أبي سفيان ، بدل حكمة الإسلام .

وإلى غدر اليهود ، بدل وفاء المسلمين .

لما كانت هناك أمجاد وقادسية ويرموك وذات الصواري وأندلس ...

ولو تحقَّق لأبي جهل وأبي لهب وأبي سفيان ما أرادوا ، لما كانت هناك حضارة عربية إسلامية زاهرة خالدة .

☆ ☆ ☆

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا : هذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُم إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ، مِنَ المؤمنينَ رِجَالٌ صَدَقوا ما عَاهَدُوا اللهَ عَلَيهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلوا تَبْدِيلاً ، لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِم وَيُعَذِّبَ

المُنَـافقينَ إنْ شَــاءَ أَو يَتُـوبَ عليهم إنَّ اللهَ كانَ غَفُـوراً رَحِيماً ، وَرَدَّ اللهُ الذينَ كَفَروا بِغَيْظِهِم لم يَنَالوا خَيْراً ، وَكفَى اللهُ المُؤْمِنينَ القِتَـالَ وَكَـانَ اللهُ قَوِيّاً عزيزاً ﴾ .

[الأحزاب : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥] .

فإلى غزوة الأحزاب ، غزوة الخندق على بركـة الله ، فهو من وراء القصد .

شوقي أبو خليل

دمشق - سورية

ص . ب ٦٢٢٢

Shawki@ Fikr.com

دمشق في : ٩ شعبان ١٤٠٢ هـ .

الموافق لـ : ١ حزيران (يونيو) ١٩٨٢ م .

من أحد إلى الخندق

- غزوة الرَّجيع .
- بئر مَعُونة .
- غزوة بني النَّضير .
- غزوة ذات الرِّقاع .
- غزوة بدر الآخرة .
- غزوة دومة الجندل .

غزوة الرّجيع

☆ قريش : أتحب أن محمداً مكانك ؟

ويجيب خبيب بن عدي : لا والله العظيم ، ما أُحب أن يفديني بشوكة يُشَاكَهَا في قدمه ! .

خرج رسول الله ﷺ ومن شهد معه أُحُداً يطلب قريشاً ، لتعلم أن الذي أصاب المسلمين ما كان ليوهنهم أو يُضعف معنوياتهم ، فوصل إلى حمراء الأسد ، حيث أقام ثلاث ليال . وأخبر معبد الخزاعي أبا سفيان أن المسلمين قد خرجوا يطلبون قريشاً في جمع لم يُرَ مثله قط ، يتحرَّقون عليهم تحرُّقاً ، قد اجتمع معه - مع النبي ﷺ - من كان تخلّف عنه بالأمس ، وتعاهدوا على أن لا يرجعوا حتى يلقوهم فيثأروا منهم ، وغضبوا لقومهم غضباً شديداً ، وندموا على ما فعلوا ، فيهم من الحنَق شيء لم أَرَ مثله قط . فقال أبو سفيان : ويلك ما تقول ؟! قال معبد : والله ما أرى أن ترحل حتى ترى نواصي الخيل . فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيَّتهم . قال معبد : فإني أنهاك عن ذلك ، فانصرفوا سراعاً .

☆ ☆ ☆

غزوة الرَّجيع ـ صفر ٤ هـ :

قـدم على رسـول الله ﷺ بعـد حمراء الأسـد رهـط من عَضَـل والقارة[١] ، فقالوا : يا رسول الله ، إن فينا إسلاماً ، فـابعث معنـا نفراً من أصحابك يفقّهونـا في الـدين ، ويُقْرئوننـا القرآن ، ويعلمونـا شرائع الإسلام . فبعث رسول الله ﷺ معهم ستة من الصحابة ، وهم :

١ ـ مَرْثَد بن أبي مرثد الغَنَوي ـ وهو أمير القوم[٢] ـ .
٢ ـ عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح .
٣ ـ خالد بن البُكَير الليثي .
٤ ـ خُبَيب بن عدي .
٥ ـ زيد بن الدَّثِنَة .
٦ ـ وعبد الله بن طارق[٣] .

فخرجـوا مـع القـوم ، حتى إذا كانـوا على الرَّجيـع[٤] غـدروا بهم ،

---

(١) قال ابن هشام : عضل والقارة من الهون بن خزيمة بن مدركة ، والهون : بضم الهاء وفتحها .

(٢) ابن هشام : جـ ٣ ص ٩٣ .

(٣) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٠٩ / ب . ابن هشـام : جـ ٣ ص ٩٣ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٣٨ ، الكامل في التـاريخ : جـ ٢ ص ١١٥ . السيرة النبويـة لابن كثير : جـ ٣ ص ١٢٦ . وعنـد البخـاري أنهم كانوا عشرة ، وعنـده أن كبيرهم عـاصم بن ثـابت بن أبي الأقلح . وكـذلـك البـدايـة والنهـايـة : جـ ٤ ص ٦٢ .

(٤) الرجيع في الأصل الروث ، والمراد هنا : اسم موضع من بلاد هذيل ، كانت الوقعة بـالقرب منـه فسميت به .

فـاستصرخوا عليهم هُـذَيلاً ، فلم يَرُع القـوم وهم في رحـالهم إلا الرجـالُ بأيديهم السيوف قد غشوهم ، فأخـذوا أسيـافهم ليقـاتلوا القوم ، فقـالوا لهم : إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئـاً من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه ألاّ نقتلكم .

فأما مرثد ، وخـالـد بن البكير ، وعـاصم بن ثـابت فقـالوا : والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً ، وقال عاصم بن ثابت :

مـا عِلَّتي وأنـا جَلْـدٌ نـابِـلُ ... والقـوسُ فيهـا وَترٌ عُنَـابِـلُ[1]
تـزِلُّ عن صفحتِهـا المعـابِـلُ[2] ... المـوتُ حَـقٌّ والحيـاةُ بـاطِـلُ
وكلُّ مـا حَمَّ الإلـهُ نـازِلُ ... بـالمرءِ والمرءُ إليـه آيِـلُ
إن لم أُقاتِلْكم فأُمِّي هابلُ

وقال عصام أيضاً :

أبـو سليمـانَ وريشُ المُقْعَـدِ ... وضـالـةٌ مثـلُ الجحيمِ المـوقَـدِ[3]
إذا النـواحي افترَشَتْ لم أُرْعِـدِ ... ومُجْنَـأ من جِلْـدِ ثـورٍ أَجْرَدِ[4]

---

(١) النابل : صاحب النبل ، والعنابل : الغليظ .
(٢) المعابل : جمع معبلة ، وهو نصل عريض طويل .
(٣) المقعد : رجل كان يريش السهام ، والضالة : السلاح ، أو السهام .
(٤) المجنأ : الترس لا حديد فيه ، والأجرد : الأملس .

وقال أيضاً :

أبـــو سليمـــــان ومِثْلي رامَى　　　　وكان قَـومي مَعْشراً كِرامــــا[1]

فلما قُتِلَ عاصم أرادت هـذيل أخـذَ رأسـه ليبيعوه من سُلافـة بنت سعد بن سهيل ، وكانت قد نـذرت حين أصـاب ابنيهـا يوم أُحـد : لئن قَدرتْ على رأس عاصم لتشربنَّ في قِحْفه[2] الخمر .

فمنعته الدَّبْر[3] ، فلما حالت بينهم وبينـه قـالوا : دعوه حتى يُمْسي فيذهب عنه فنأخذه ، فبعث الله الوادي[4] فاحتمل عاصماً فذهب معه .

وقد كان عاصم قد أعطى الله عهداً ألا يمسَّه مشرك ولا يمس مشركاً أبداً ، تنجُّساً ، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه أن الدَّبْر منعته : « يحفظُ الله العبدَ المؤمن ، كان عاصم نذر ألا يمسَّه مشركٌ ولا يمسَّ مشركاً أبداً في حياته ، فمنعـه الله بعـد وفـاتـه كما امتنع منـه في حياته »[5] .

---

(١) الأبيـات في السيرة النبـويـة لابن كثير : جـ ٣ ص ١٢٦ ـ ١٢٧ . والاكتفـاء : جـ ١ ص ١٠٩ / ب . وابن هشام : جـ ٣ ص ٩٤ . وفي البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٦٤ (راما) .

(٢) القِحْف : العظم الذي فوق الدمـاغ من الجُمجمـة ، والجمجمة التي فيهـا الـدمـاغ ، وقيل : قِحْف الرجل ما انفلق من جمجمته فبان ولا يُدْعى قِحْفاً حتى يبين ، ولا يقولون لجميع الجمجمة قحفاً إلا أن يتكسَّر منه شيء ، فيقال للمتكسِّر قِحْفٌ ، (لسان العرب : جـ ٩ ص ٢٧٥) .

(٣) أي حالت الزنابير بينهم وبينه .

(٤) أي ملأ سيلٌ الوادي فاحتمل وجرف عاصماً فذهب به .

(٥) عيون الأثر : جـ ٢ ص ٤٢ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٨٤ . الطبري : =

وأُسر خُبيب بن عدي وزيد بن الدَّثِنة وعبد الله بن طارق ، فخرج القوم بهم إلى مكة . وفي الطريق انتزع عبد الله بن طارق يده من القِرَان[1] ، ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه . وَقبره بالظَّهْران .

وأما خبيب وزيد بن الدَّثِنة فقدموا بهما مكة ، فباعوهما من قريش بأسيرين من هُذَيل كانا بمكة .

لقد ابتاع صفوانُ بن أمية زيدَ بن الدثنة ليقتله بأبيه ، فبعثه مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم[2] ، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قُدِّم لِيُقتل : أنشدك بالله يا زيد ، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك ؟ فقال زيد مجيباً : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي . فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحُبِّ أصحاب محمد محمداً[3] ! ثم قتل نسطاس زيداً .

= جـ ٢ ص ٥٣٩ . ابن هشام : جـ ٣ ص ٩٤ . الاكتفاء : جـ ١ ص ١٠٩ / ب . البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٦٣ .

(١) القِرَان : الحبل الذي يُربطُ به الأسير .

(٢) التنعيم : موضع خارج مكة في الحل .

(٣) ابن هشام : جـ ٣ ص ٩٥ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٨٨ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٤٢ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٤٢ .

أما خُبَيب بن عدي فابتاعه حُجَير بن أبي إهاب التميي ، وكان أبو إهاب أخا الحارث بن عامر لأُمّه ليقتله بأبيه . قالت ماوية مولاة حجير ـ وكانت قد أسلمت ـ : كان عندي خبيب ، حُبِسَ في بيتي ، فلقد اطَّلعت عليه يوماً وإن في يده لقطفاً من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه ، وما أعلم بمكة ثمره ، لقد كان ذلك رزقاً رزقه الله خبيباً[1] . وهذه كرامة جليلة لخبيب ، جعلها الله سبحانه وتعالى آية للمشركين ، وبرهاناً لنبوة محمد ﷺ ، ودليلاً على صحة رسالته .

وخرجوا بِخُبيب إلى التنعيم ليصلبوه ، فقال لهم : إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا . قالوا : دونك فاركع ، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنُّوا أني إنما طوَّلت جَزَعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة .

فكان خبيب أوّل من سَنَّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين ، وصارت سُنَّة لأنها فُعِلت في زمن رسول الله ﷺ واستحسنت من صنيعه .

ثم رفعوه على خشبة ، فلما أوثقوه قال :

---

(١) وفي الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١١٦ : « لقد رأيته وما بمكة ثمرة وإن في يده لقطفاً من عنب يأكله ، ما كان إلاّ رزقاً رزقه الله خبيباً » ، والخبر أيضاً في : الطبري : جـ ٢ ص ٥٤١ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٨٥ . وابن هشام : جـ ٣ ص ٩٥ . البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٦٣ .

لقـد جمعَ الأحزابُ حَوْلي وألَّبـوا | قبـائِلَهم واستَجْمعـوا كلَّ مَجْمـعِ
وكلُّهم مُبْـدِي العـداوة جَـاهِـدٌ | عليَّ لأنّي في وَثـــاقٍ بمَضْيَـعِ
وقـد جَمعـوا أبنـاءهم ونسـاءهم[1] | وقُرِّبت من جـذعٍ طـويـل ممنَّـعِ
إلى الله أشكـــو غُربتي ثم كُرْبتي | وما أرْصَدَ الأعداءُ لي عنـد مصرعي
فـــذا العرشِ صبِّرني على مــا يزاد بي | فقد بضَّعوا لحمي وقـد يـاس مَطْمعي[2]
وذلـك في ذات الإلـه وإن يَشــأ | يبارِكْ على أوصـالِ شِلْوٍ مُمزَّعِ[3]
وقد خيَّروني الكفرَ والموتُ دونـه | وقـد هَملت عَينـايَ مِن غيرِ مَجْزَعِ
ومـا بي حــذارُ المـوت إنّي لميِّتٌ | ولكنْ حـذاري جَحْم نـارٍ مُلفَّعِ[4]
فـوالله مـا أرجـو إذا مِتُّ مُسْلمـاً | على أيِّ جنبٍ كان في الله مضجعي
فلستُ بمُبْــدٍ للعـــدوِّ تَخَشُّعــاً | ولا جَـزَعـاً إني إلى الله مَرْجعي[5]

وقالوا لخبيب : أتحب أن محمداً مكانك ؟ .

(١) إشارة إلى أن قريشاً قـد جمعت الأولاد والنسـاء وقـالت لهم : إن هـذا قتل آبـاءكم وأزواجكم يوم بدر ، فبدؤوا يطعنونه بسهام ورماح .

(٢) ياس : يأس .

(٣) الشلو : بقية الشيء .

(٤) الملفع : المشتمل .

(٥) في صحيح البخاري بيتان من هذه القصيدة ، وهما قوله رضي الله عنه :

فلستُ أبــالي حين أُقْتَـلُ مُسْلمـــاً | على أي شِــــقٍّ كان في الله مَصْرَعي
وذلـــك في ذاتِ الإلـــه وإنْ يَشَـــأ | يبـــارِكْ على أوصـــالِ شِلْـوٍ ممـزَّعِ

والأبيات أعلاه في : ابن هشام : جـ ٣ ص ٩٨ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

قال : لا والله العظيم ، مـا أحب أن يفـديني بشوكـة يُشـاكهـا في قدمه ! فضحكوا منه .

ثم قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلّغه الغداةَ مـا يصنع بنا ، اللهم أحْصِهم عَدَداً ، واقتلهم بَـدَداً[1] ، ولا تغـادر منهم أحـداً ، ثم قتلوه .

وفي مغازي موسى بن عقبة : أن خبيبـاً وزيـد بن الـدثنـة قُتِلا في يوم واحد ، وأن رسول الله ﷺ سَمِع يومَ قُتِلا وهو يقول : وعليكما ـ أو عليك ـ السلام ، خبيب قتلته قريش .

وبعد أن قتلوا خبيباً أبقوه على خشبة مصلوباً مدة ، فـأرسل ﷺ عَمْرو بن أُميـة الضمري[2] لينزلـه من الخشبـة ، فـإذا هو رطب لم يتغيَّر منه شيء بعد . روى الإمـام أحمـد بن حنبل عن عمرو بن أُميـة قـال : بعثني رســول الله ﷺ وحـــدي عينـــاً إلى قريش ، فجئت خشبـــة خبيب بن عدي لأنزله من الخشبة ، فصعدت خشبته ليلاً فأنزلته[3] .



---

(١) بَدَداً : متفرّقين .

(٢) وفي رواية أرسل ﷺ : الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود أيضاً .

(٣) الطبري : جـ ٢ ص ٥٤١ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٤٣ . الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١١٦ .

وبمناسبة مصرع خبيب بن عدي رضي الله عنه ، نورد قصة سعيد بن عامر الذي شهد مصرع خبيب بمكة .

قال خالد بن معدان : استعمل علينا عمر بن الخطاب بحمص سعيد بن عامر الجُمَحي[١] ، فلما قَدِمَ عُمر حمص قال : يا أهل حمص ، كيف وجدتم عاملكم ؟ فشكوه إليه[٢] قالوا : نشكو أربعاً :

١ ـ لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار ، قال عمر : أعظم بها ، وماذا ؟ قالوا :

٢ ـ لا يجيب أحداً بليل ، قال عمر : أعظم بها ، وماذا ؟ قالوا :

٣ ـ وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا ، قال عمر : وعظيمة ، وماذا ؟ قالوا :

٤ ـ يَغْنُطُ الغنطة بين الأيام[٣] .

فجمع عمر رضي الله عنه بينهم وبينه ، وقال : اللهم لا تُفَيِّل رأيي فيه اليوم[٤] ، وقال لهم : ما تشكون منه ؟ .

---

(١) سعيد بن عامر بن حذيم بن سلامان بن ربيعة بن سعد بن جُمَح القرشي ، أُمه أروى بنت أبي معيط أُخت عقبة ، أسلم قبل خيبر ، وهاجر إلى المدينة ، وشهد خيبر وما بعدها من المشاهد ، وكان من زُهّاد الصحابة وفضلائهم . (أُسْدُ الغابة : جـ ٢ ص ٣٩٣) .

(٢) وكان يقال لأهل حمص : الكوفية الصغرى ، لشكايتهم العمال .

(٣) أي يغمى عليه ويغيب عن حسّه .

(٤) أي لا تخيِّب رأيي فيه ، ورد في لسان العرب : جـ ١١ ص ٥٣٤ : (فال رأيه يفيل فيلولة : أخطأ وضعف) .

قالوا : لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار .

قال عمر : ما تقول ؟ .

قال سعيد بن عامر : والله وإن كنت لأكره ذكره : ليس لأهلي خادم ، فأعجِنُ عجيني ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ثم أتوضّأ ثم أخرج إليهم .

عمر : وما تشكون منه ؟ .

أهل حمص : لا يجيب أحداً بليل .

عمر : ما تقول ؟ .

سعيد : إن كنت لأكره ذكره ، إني جعلت النهار لهم ، وجعلت الليل لله عز وجل .

عمر : وما تشكون ؟ .

أهل حمص : إن له يوماً في الشهر لا يخرج إلينا فيه .

عمر : ما تقول ؟ .

سعيد : ليس لي خادم يغسل ثيابي ، ولا لي ثياب أُبدِّلها ، فأجلس حتى تجف ثم أدلكها ثم أخرج إليهم من آخر النهار .

عمر : ما تشكون منه ؟ .

أهل حمص : يغنط الغنطة بين الأيام .

عمر : ما تقول ؟ .

سعيد : شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة وقد بضَّعت قريش لحمه ، ثم حملوه على جِذْعة فقالوا : أتحب أن محمداً مكانك ؟ فقال : والله ما أحب أني في أهلي وولدي وأن محمداً ﷺ شِيكَ بشوكة . ثم نادى : يا محمد ! . فما ذكرت ذلك اليوم وتركي نصرته في تلك الحال وأنا مشرك إلا ظننت أن الله عز وجل لا يغفر لي بذلك الذنب أبداً ، فتصيبني تلك الغنطة .

فقال عمر : الحمد لله الذي لم يفيِّل فراستي[1] .

وطلب عمر رضي الله عنه مرّة من أهل حمص ، أن يكتبوا له أسماء فقرائهم ، فرفع الكتاب ، فإذا فيه اسم سعيد بن عامر ؓ فقال عمر : مَنْ سعيد بن عامر ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، أميرنا . قال : وأميركم فقير ، أين عطاؤه ؟ أين رزقه ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين لا يُمْسِك شيئاً[2] ، فبكى عمر ، ثم عمد إلى ألف دينار فصرَّها ، وبعث بها إليه

(١) حلية الأولياء : جـ ١ ص ٢٤٥ . الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٠ / ب ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٤٤ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٣١ .

(٢) قدم سعيد بن عامر على عمر مرة فلم يرَ عمر معه إلا عكازاً وقدحاً ، فقال له : ليس معك إلا ما أرى ؟ فقال سعيد : وما أكثر من هذا ؟! عكاز أحمل عليه زادي ، وقَدَح آكل فيه .

وقال : أقرئوه مني السلام ، وقولوا لـه : بعث بهـا إليـك أمير المؤمنين ، فاستعن بها على حاجتك ، فلما جاء بهـا الرسول ، نظر إليهـا فـإذا هي دنانير ، فاهتم هماً شديداً ، حتى ظهر ذلك عليـه ، فقـالت لـه زوجـه : نفسي فداك ، ما لي أراك مهتماً ، أبلغك موت أمير المؤمنين ؟ .

سعيد بن عامر : أعظم من ذلك ! .

زوجه : أبلغك عن ثغور المسلمين شيء ؟ .

سعيد : أعظم من ذلك ! .

زوجه : وما هو ؟ .

سعيد : ابتُلِيت بـالـدنيـا ، وقـد كنت صحبت رسول الله ﷺ فلم أبتلَ بها ، وصحبت أبا بكر فلم أبتلَ بها ، وابتليت بهـا في صحبـة عمر ، ألا فَشَرٌّ أيامي أيام عمر .

زوجه : وما ذاك بأبي أنت وأمي ؟ .

سعيد : إني أخافك ! .

زوجه : إياي تعني ؟ .

سعيد : نعم .

زوجه : فأنت آمن من هذا .

سعيـد : فـإن أمير المـؤمنين أرسـل إليَّ ألف دينــار وعـزم عليَّ أن أنفقها عليَّ وعليك ، وإن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيـائهم بـأربعين خريفـاً[1] ، ووالله مــا أُحب أن لي حمرَ النَّعم وأني أُحبس عن الفوج الأول .

زوجه : فدونكها فاصنع بها ما شئت .

سعيد : هل من خِرَق ؟. فأعطته قميصاً لها خَلِقاً فمزّقه خِرَقـاً ، ثم صرَّ فيـه مـا بين أربعـة إلى عشرة ، ثم طرحهـا في مخلاة ، وبـات الليـل يصلي ، ثم خرج إلى باب الرَّسْتَن من حمص ، فجعل يعطي النـاس صرَّة صرَّة حتى بقيت صرَّة في المخـلاة فـدفعهـا والمخـلاة إلى رجـل ، ثم رجـع فذهب عنه الهم واستراح .

رضي الله عن سعيد بن عامر الجُمحي ، فهو وأمثـالـه في تـاريخنـا العربي الإسلامي يمثلون النواة الثابتة ، والقاعدة المتينة الراسخة في مجد ورفعة هذه الأُمَّة ، وهو وأمثاله مدار بقـائهـا وقوتهـا ومنعتهـا ، وقيمـة الأُمة بأفراد هذا نهجهم ، وهذه سيرتهم .



(١) وهذا من حديث نبوي شريف نصه : « يـدخل فقراء المهـاجرين قبل النـاس بسبعين عـامـاً » ، أخرجه الثلاثة .

بئر معونة
سنة

☆ ما بُنيت دولة إلاّ بصدق عقيدة أبنائها ، مع تضحياتهم في سبيل البنيان وبقائه .

وقدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر مُلاعِب الأسِنّة[1] على رسول الله ﷺ في صفر من سنة أربع للهجرة ، وأهدى رسول الله ﷺ هدية ، فلم يقبلها ، وقال : « يا أبا براء لا أقبل هدية مشرك »[2] . ثم عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه ، فلم يسلم ، ولم يبعد عن الإسلام ، وقال : يا محمد ، إني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً ، وقومي خلفي ، فلو أنك بعثت معي رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد ، فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال ﷺ : « إني أخشى

---

(١) في الروض الأُنف : جـ ٣ ص ٢٣٨ : سمي ملاعب الأسنة في يوم سوبان ، حيث وقعت الحرب بين قيس وتميم ، وكان سبب تسميته في يوم سوبان ملاعب الأسنة أن أخاه الذي يقال له فارس قرزل وهو طفيل بن مالك كان أسلمه في ذلك اليوم وفرّ ، قال الشاعر :

فررتَ وأسلمتَ ابن أمك عامراً ... يلاعب أطراف الوشيج المزعزع

فسمي ملاعب الأسنة .

(٢) السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٩٠ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٤٦ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٤٣ . الاكتفاء : جـ ١ ص ١١١ / ا . الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١١٧ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٣٩ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٠٣ . البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٧١ .

عليهم أهل نجد » ، فقال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك .

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو في أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين ، منهم : الحارث بن الصمة ، وحرام بن ملحان ، وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي ، ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق ... فساروا حتى نزلوا ببئر معونة[1] .

فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل[2] ، فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على ابن ملحان فقتله ، ثم استصرخ عليهم بني عامر ، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، وقالوا : لن نخفر[3] أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجوازاً ، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم من عُصية ورِعل وذكوان فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ، إلاّ كعب بن

---

(١) وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سُلَيم ، كلا البلدين منها قريب .

(٢) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر الكلابي العامري ، ابن أخي أبي براء ، مات كافراً ، وليس هو عامر بن الطفيل الأسلمي الصحابي .

(٣) الاخفار : نقض العهد .

زيد فإنهم تركوه وبه رمق ، فرفع مع القتلى وبه رمق ، فعاش حتى استشهد يوم الخندق[1] .

وكان في سرح القوم عمرو بن أُميَّة الضمري ورجل من الأنصار هو المنذر بن محمد بن عقبة بن أُحيحة ، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر ، فقالا : والله إن لهذا الطير لشأناً ، فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم في دمائهم ، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة ، فقال المنذر لعمرو بن أُمية : ما ترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر ، فقال المنذر : لكني ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنت لتخبرني عنه الرجال ، ثم قاتل القوم حتى استشهد ، وأخذوا عمرو بن أُمية أسيراً ، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل . فخرج عمرو بن أُميَّة حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة[2] ، أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا معه في ظلٍ هو فيه . وكان مع العامريَّين عقد من رسول الله ﷺ وجوار ، لم يعلم به عمرو بن أُمية ، وقد سألهما حين نزلا ، ممن أنتما ؟ فقالا : من بني عامر ، فأمهلهما حتى إذا ناما ، عدا عليهما فقتلهما وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثؤره من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ .

---

(١) عيون الأثر : جـ ٢ ص ٤٤ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٤٧ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٠٤ . البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٧٢ .

(٢) مكان قريب من المدينة المنورة .

ولما قَدِمَ عمرو بن أُمية على رسول الله ﷺ أخبره الخبر ، فقال ﷺ : « لقد قتلتَ قتيلين لأَدِيَنَّهما[1] » . ثم قال ﷺ : « هذا عمل أبي براء ، قد كنت لهذا كارهاً متخوِّفاً » . فبلغ ذلك أبا براء ، فشق عليه إخفار عامر إياه ، وما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ بسببه وبجواره .

روى ابن سعد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « ما رأيت رسول الله ﷺ وجد[2] على أحد ما وجد على أهل بئر معونة » ، لكونه لم يرسلهم لقتال ، إنما هم مبلغون رسالته ، وقد جرت عادة العرب قديماً بأن الرسل لا تقتل .

رحم الله شهداء بئر معونة ، فقد كانوا ضحية الغدر ونقض العهد ورفض الجوار . إنهم لبنات في بناء صرح دولة الإسلام أيام رسول الله ﷺ ، وما بنيت دولة إلا بصدق عقيدة أبنائها ، مع تضحياتهم في سبيل البنيان وبقائه .

رحم الله شهداء بئر معونة ، جاؤوا يدعونهم إلى الإسلام حيث

---

(١) أي سأدفع ديتيهما . والخبر في : الاكتفاء : جـ ١ ص ١١١ / ا . الطبري : جـ ٢ ص ٥٤٧ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٤٣ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٠٤ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٤٥ . البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٧٣ .

(٢) وجد : حزن . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٩٣ .

جنَّة الدنيا قبل جنَّـة الآخرة ، فلفحتهم سيوف بني سُلَيم . ولقـد أعطى أمير القوم حرام بن مِلْحَـان درساً خـالـداً في عزة نفس المؤمن ، وشـدة يقينه بالله ، وحبِّه للشهـادة ، فكان سببـاً رئيسـاً لإسلام المشرك الـذي قتله . قال ابن إسحاق : حدثني بعض بني جبار بن سلمى بن مالك بن جعفر قال : كان جبار فيمن حضر يومئـذ بئر معونـة مع عـامر ثم أسلم ، وكان جبـار يقول : إن ممـا دعـاني إلى الإسلام ، أني طعنت رجلاً منهم يومئذ بالرمح ـ والرجل هو ابن ملحـان ـ فتلقى دمـه بكفـه ثم نضحـه ـ أي رشَّه ـ على رأسـه ووجهـه وقـال : فزت ورب الكعبـة . فقلت في نفسي : ما فاز ؟! أليس قد قُتل ؟! حتى سألت بعد ذلـك عن قولـه ، فقالوا : فاز بالشهادة في سبيل الله . فقلت : فاز لعمرو الله !!.



غزوة بني النضير

سنة ٤هـ

☆ الإسلام معتقد قوي ومتسامح معاً ، ولكنه ما جعل التسامح موقفاً مهتزاً يتلقى بسببه الضربات والمؤامرات ، بل جعل للتسامح قوة تحميه .

سببها : خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير[1] يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر ، اللذين قتل عمرو بن أُمية الضمري ، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما ، والذي نصَّ على أن يعاونوه في الديات[2] . وكان مع رسول الله نفر من أصحابه[3] ، فقالوا له : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، وقد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا ، ولكن حتى تُطْعَم وترجع بحاجتك . وكان ﷺ جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم ، فخلا بعضهم ببعض وقالوا :

---

(١) وهم قوم من اليهود بالمدينة .

(٢) راجع : الاكتفاء : جـ ١ص ١١١ / ب . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٠٨ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٩٤ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٥٠ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٤٨ . الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١١٩ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٠٨ . البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٧٤ .

(٣) دون العشرة . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٢٧٧ .

إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحالة ، فمن رجل يعلو على هذا البيت فَيُلْقي عليه صخرة فيريحنا منه[1] ؟!.

فقال عمرو بن جحاش بن كعب ـ وهو أحد ساداتهم ـ : أنا لذلك ، فقال لهم سلام بن مشكم : لا تفعلوا ، والله لَيُخْبرن بما هممتم به ، إنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه . فلما صعد عمرو بن جحاش ليُلقي الصخرة ، أتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء ، بما أراد القوم ، فقام رسول الله ﷺ مظهراً أنه ذهب لقضاء حاجته ، وترك أصحابه في مجالسهم ورجع مسرعاً إلى المدينة . ولم يعلم من كان معه من أصحابه ، فقاموا في طلبه ﷺ لما استبطؤوه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه فقال : رأيته داخل المدينة ، فأقبل أصحابه حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم رسول الله ﷺ بما أرادت بنو النضير .

وقال اليهود عندما رأوا قلة أصحابه ﷺ : نقتله ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكة فنبيعهم من قريش .

لقد طرح الإسلام في لحظاته الأولى في المدينة مبدأ عامّاً ثابتاً على مرّ الزمن ، ألا وهو المآخاة والتسامح والعيش معاً مع الأديان الأُخرى ، مع الاحترام الكامل لعقائدها ، ولم يجعل ذلك شعاراً مرفوعاً ، بل منهجاً أثبتته الوقائع والأعمال .

---

(١) وفي رواية : « فجاء إلى رحى عظيمة ليطرحها عليه » ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٩٥ .

الإسلام معتقد قوي ومتسامح معاً ، ولكنه ما جعل التسامح موقفاً مهتزاً يتلقّى بسببه الضربات والمؤامرات من قريش واليهود ، بل جعل للتسامح قوة تحميه ، فلْنَرَ ما صنع ﷺ مع قتلة الأنبياء[1] !؟!.

فبينما بنو النضير على ذلك الأمر - أي على إرادة إلقاء الحجر والتهيؤ لإلقائه - ، جاء رجل منهم من المدينة ، فقال لهم : ما تريدون ؟! فذكروا له الأمر ، فقال لهم : أين محمد ؟ قالوا : هذا محمد ، فقال لهم : والله لقد تركت محمداً داخل المدينة ، فأسقط في أيديهم ، وقالوا : قد أُخبر بأمرنا .

وأرسل ﷺ محمد بن مسلمة إليهم ، فبلّغهم أمر رسول الله ﷺ ، أن أخرجوا من المدينة ، لأن قريتهم من أعمالها ، فلا تساكنوني بها ، فقد هممتم بما هممتم به من الغدر . وأخبرهم بما هموا به من ظهور عمرو بن جحاش على ظهر البيت ليطرح الصخرة ، فسكتوا ولم يقولوا حرفاً .

وقال محمد بن مسلمة رضي الله عنه : ويقول لكم قد أجلتكم عشراً ، فمن رؤيَ بعد ذلك ضربت عنقه . فالرحمة هنا لا محل لها في موقفين متباينين ، تناقضت فيهما التصوّرات ، طرف متسامح يطرح المحبة

---

(١) ورد أن اليهود قتلوا أكثر من سبعين نبياً ، ومن جملة من قتلوا زكريا ويحي ، قال عزَّ وجل : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حَقٍّ ﴾ (النساء : ١٥٤) .

والتعاون والتعايش بأمان ، وطرف حاقد ماكر ناكث الوعد ، ينفذ التآمر والقتل .

إنّ تصرفات اليهود سيطرت عليها روح الحفاظ على الامتيازات التي تمتعوا بها عندما كان العرب فِرَقاً وقبائل متنافسة ، ولكن هيهات أن تنجح هذه الروح في ظل الإسلام ، فما كان من عند الله يُمْضِهِ .

بنو النضير وتعاطف المنافقين معهم :

أرسل بنو النضير في إحضار الإبل ، فأرسل إليهم المنافقون : عبد الله بن أُبيّ بن سلول ، ووديعة ومالك بن أبي قوقل ، وسويد وداعر ؛ ألاّ تخرجوا من دياركم ، نحن معكم ، إن قوتلتم فلكم علينا النصر ، وإن أُخرجتم لن نتخلَّف عنكم[1] .

وقال لهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول : لا تخرجوا من دياركم ، أقيموا في حصونكم فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب ، يدخلون حصونكم ، ويموتون عن آخرهم قبل أن يُوصل إليكم ، وتمدّكم قريظة وحلفاؤهم من غطفان . فطمع بنو النضير فيما قال ابن أُبيّ ، فأرسلوا لرسول الله ﷺ أنّا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك ، فأظهر

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٤٧ . ابن خلدون : جـ ٢ ص ٢٨ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٩٧ ـ ٩٨ .

رسـول الله ﷺ التكبير ، وكبَّر المسلمـون لتكبيره وقـال : « حـاربت يهود » .

قـال سلام بن مِشْكم ، أحـد سـادات بني النضير ، لزعيمهم وسيـدهم آنذاك حُيَيّ بن أخطب : منتك نفسـك والله يـا حيي البـاطل ، فـإن قولِ ابن أُبيّ ليس بشيء ، وإنما يريد أن يورطك في الهلكة حتى تحارب محمداً فيجلس في بيته ويتركـك ، ألا ترى أنـه أرسل إلى كعب بن أسـد القرظي سيد بني قريظة أن تمدكم بنو قريظة فقال له : لا ينقض رجل واحد منا العهد ، فآيس من بني قريظة ، وأيضاً قـد وعـد حلفـاءه من بني قينقـاع مثـل مـا وعـدك حتى حـاربـوا ونقضـوا العهـد ، وحصروا أنفسهم في صيـاصيهم[1] ، وانتظروا ابن أُبي فجلس في بيتـه وسـار محمـد إليهم حتى نزلوا على حكمه ، فإذا كان ابن أُبيّ لا ينصر حلفـاءه ومن كان يمنعـه من النـاس ، ونحن لم نـزل نضربـه بسيـوفنـا مـع الأوس في حروبهم[2] ، فكيف يقبل قوله ؟ .

فقال حييّ : نأبى إلا عداوة محمد وإلا قتاله . قـال سلام : فهو والله جلاؤنـا من أرضنـا وذهـاب أمـوالنـا وشرفنـا وسبي ذرارينـا مـع قتـل مقاتلينا ، فأبى حييّ إلا محاربة رسول الله ﷺ ، وقالت له بنو النضير :

---

(١) أي في حصونهم .

(٢) أي إنه إذا كان بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقـاع مع الخزرج ، وخرجت بنو النضير وقريظة مع الأوس .

أمرنا لأمرك تبع لن نخالفك ، فأرسلَ إلى رسول الله ﷺ أنه لن يخرج ، وأنه مستعد للقتال .

تهيَّأ المسلمون لحربهم ، فلما اجتمعوا خرج رسول الله ﷺ بهم ، واستعمل على المدينة ابن أُم مكتوم ، وحمل رايته علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وسار بالناس حتى نزل ديار بني النضير[1] ، وصلى العصر بفنائهم ، وهم متحصنون في الحصون يرمون المسلمين بالنبل والحجارة .

ساعدهم في موقفهم هذا : نتائج غزوة أُحد العسكرية ، والتي جاءت لصالح قريش . ووعود المنافقين بزعامة عبد الله بن أُبيّ بن سلول ، وأملهم بإمدادهم من قبل بني قريظة وحلفائهم من غطفان .

وأرسل رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة يؤكد مطالبه ، وقال ﷺ : اذهب إلى يهود ، فقل لهم : اخرجوا من بلادي ، فلا تساكنوني وقد هممتم بما هممتم به من الغدر . فجاءهم محمد بن مسلمة فقال لهم : إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تظعنوا من بلاده ، فقالوا : يا محمد بن مسلمة ، ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس[2] ! فقال ابن

---

(١) وكان بينهم وبين المدينة نحو ميلين في عوالي المدينة من ناحية قُباء .

(٢) كان محمد بن مسلمة أوسي (أي من قبيلة الأوس) .

مسلمة : تغيَّرت القلوب ، ومحا الإسلام العهود[1] ، فقالوا : نتحمَّل ، الموت أهون من جلائنا .

ومن الملاحظ أن بني النضير لم تنفِ خبر الغدر برسول الله ﷺ ، ولو لم يكن الأمر حقاً لكذبوه . وفي رأينا أن سبب عدم تكذيب اليهود لخبر غدرهم وإلقاء الصخرة على رسول الله شيوع الخبر بينهم ، وبعضهم لم يكن على رأي الغدر والنكث ، وعارضوا في قتل رسول الله ﷺ ، إما حفاظاً على ديارهم وممتلكاتهم ، وإما قناعة بنبوته ولو لم يتبعوه ، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . أما قال لهم سلام بن مشكم : لا تفعلوا ، والله ليخبرن بما هممتم به ؟ بالإضافة إلى أن فعلتهم هذه عُرِفوا بها على مرّ التاريخ ، فليست أمراً جديداً عليهم .

وبات المسلمون يحاصرونهم ويكبِّرون حتى أصبحوا ، ثم أذّن بلال بالفجر ، فصلى ﷺ بالناس ، وأمر بلالاً فضرب قبة من خشب عليها مسوح ، فدخل ﷺ فيها .

وكان رجل من اليهود يقال له غزول ، وكان رامياً يبلغ نبله ما لا يبلغه نبل غيره ، فوصل نبله تلك القبة ، فأمر ﷺ بها فحوِّلت .

وفي ليلة من الليالي فُقِدَ علي رضي الله عنه ، فقال الناس : يا

---

(١) التي كانت بين الأوس وبني النضير أيام الجاهلية ، لتحل محلها عهود جديدة أبرمها رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة .

رسول الله ما نرى علياً ! فقال ﷺ : « دعوه فإنه في بعض شأنكم » ، فعن قليل جاء برأس الرجل الذي يقال له غزول ، الذي وصل نبله قبة رسول الله ﷺ ، كمن له علي حين خرج غزول يطلب غرة من المسلمين ، ومعه جماعة ، فشد عليه فقتله ، وفرّ من كان معه ، فأرسل رسول الله ﷺ مع علي أبا دجانة وسهل بن حنيف في عشرة ، فأدركوا أولئك الجماعة الذين كانوا مع غزول فقتلوهم[1] .

وأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل وبحرقها بعد أن حاصرهم ست ليال ، وقيل خمسة عشر يوماً أو عشرين ليلة ، وكان موضع نخل بني النضير الذي أمر رسول الله ﷺ بحرقها بالبويرة ـ تصغير بورة وهي الحفرة ـ وهو مكان معروف من جهة مسجد قُباء إلى جهة الغرب .

واستعمل رسول الله ﷺ على قطع النخل أبا ليلى المازني ، وعبد الله بن سلام . فنادى اليهود : يا أبا القاسم ! قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟! ما هذا الفساد ؟! يا محمد ! زعمت أنك تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل ؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أُنزل عليك الفساد في الأرض ؟ .

وقال اليهود للمسلمين : إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون ؟ فوقع في نفوس المسلمين من هذا الكلام شيء ، فأنزل الله عز وجل :

---

(١) الخبر في : السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٩٨ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٢٨٠ .

﴿ مـا قَطَعْتُم مِنْ لِينَـةٍ أَوْ تركتُمُـوهـا قَـائِمـةً على أُصُـولِها فَبِـإِذْنِ الله وَلِيُخْزِيَ الفـاسِقِين ﴾[1] ، ولم يقل عز وجل نخلـة على العمـوم ، تنبيـه على كراهية قطع ما يُقتات منه من شجر العـدو ، وفي وصيَّـة الصـدِّيق رضي الله عنه بعدهـا يوصي الجيوش : ألا يقطعوا شجراً مثمراً - واللينـة ألوان التمر ما عدا العجوة والبرني - وتدل الآية الكريمـة على أنـه ﷺ لم يحرق من نخلهم إلا مـا ليس بقـوت للنـاس ، لأنهم كانـوا يقتـاتـون العجوة[2] .

هـذا ، وجميع مـا قطعوا وحرقـوا ست نخـلات[3] فقـط ، ولم يكن ذلـك فسـاداً ، بل نقمـة أنزلهـا بهم المسلمون ، وخزي من الله عز وجـل للغـادرين النـاكثين لعهودهم ، وإحراج لموقفهم وليعلمـوا أن الأمر جـد وليس هزلاً واستعراضاً لقوة المسلمين بعد أُحد .

ولا يـزال عبـد الله بن أُبيّ بن سلـول يبعث لبني النضير أن اثبتـوا وتمنَّعوا في حصونكم ، فإنكم إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أُخرجتم خرجنـا معكم ، فانتظروا ذلـك . ولكنّـه خـذلهم ، ولم يقـدّم لهم عونـاً . وجعل

---

(١) الحشر : ٥ .

(٢) راجـع : ابن هشـام : جـ ٣ ص ٢٨٠ . السيرة النبـويـة لابن كثير : جـ ٣ ص ١٤٩ . الروض الأُنف : جـ ٣ ص ٢٥٠ . فتوح البلدان : ص ٣٢ . الاكتفـاء : جـ ١ ص ١١٢ / أ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٤٨ - ٤٩ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٥٣ . البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٧٥ .

(٣) ابن هشام : جـ ٣ ص ٢٨٠ .

سلام بن مشكم وكنانة بن صوريا يقولان لحييّ : أين نصر ابن أُبيّ الذي زعمت ؟! فيجيب حييّ : ما أصنع ، هي ملحمة كتبت علينا ؟ .

ولزم المسلمون حصارهم ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ، ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحَلْقة[1] ، ففعل ، فاحتملوا النساء والصبيان ، وحملوا من أموالهم غير الحلقة ما استقلت به الإبل ، وكانت ستمائة بعير ، فكان الرجل يهدم بيته عما استحسن منه كنجاف بابه[2] ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ، فأخذوا العُمُد والسقوف ونزعوا الخشب حتى الأوتاد ، ونقضوا الجدران ، حتى لا يسكنها المسلمون من بعدهم .

وخرجوا مظهرين التجلُّد ، مع زهو وفخر ما رئي مثله من حيٍّ للناس في زمانهم - ولم تحدد المراجع عددهم حين إجلائهم - خرجت النساء على الهوادج وعليهن الديباج والحرير المزركش ، وحلي الذهب والفضة ، وخلفهم القيان بالدفوف والمزامير ، فجعلوا يمرّون قافلة في إثر قافلة ، وسلام بن أبي الحقيق رافع جلد جمل أو ثور مملوء حلياً وينادي بأعلى صوته : هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها ، وإن كنا تركنا نخلاً ففي خيبر النخل . وسار قسم منهم إلى خيبر على بعد مائة ميل

---

(١) الحَلْقة : بسكون اللام ، الدروع ، وهي هنا آلة الحرب والسلاح عامّاً .

(٢) نجاف الباب : أسكفته .

شمال المدينة ، ومنهم حيّ بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق ، فلما نزلوا خَيْبَرَ[1] دان لهم أهلها ، ومنهم من سار إلى جنوب الشام إلى أذرِعات .

ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان ، وهما : يامين بن عمير ، وأبو سعد بن وهب ، قال أحدهما لصاحبه : والله إنك لتعلم أنه رسول الله ، فما تنتظر أن تسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا ؟ فنزلا من الليل وأسلما فأحرزوا أموالهما[2] .

وقال رسول الله ﷺ ليامين : ألم تر ما لقيت من ابن عمك ، وما همَّ به من شأني ؟ فجعل يامين لرجل من قيس جعلاً ـ عشرة دنانير ، وقيل خمسة أوسق من تمر ـ على قتل عمرو بن جحاش الذي أراد أن يلقي الحجر على رسول الله ﷺ ، فقتله غيلة .

☆ ☆ ☆

وقبل الحديث عن فيء بني النضير ، نقف قليلاً عند هدم بني النضير لبيوتهم قبل جلائهم : « فكان الرجل يهدم بيته عما استحسن منه كنجاف بابه ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ، فأخذوا العمد

(١) خيبر بلغة اليهود : الحصن .

(٢) الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٢ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١١٠ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٢٨٢ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٥٥ .

والسقـوف ، ونـزعـوا الخشب حتى الأوتـاد ، ونقضـوا الجـدران حتى لا يسكنها المسلمون من بعدهم » .

يقول الـدكتور إسرائيل ولفنسون في رسـالتـه (تـاريخ اليهود في بلاد العرب) : « إن هدم البيوت لم يكن القصد منـه التخريب وأخـذ الأخشاب ، بل إن هدم نجاف البيوت يتعلّق بعقيدة تلمودية معروفة ، وهي أن كل يهودي يعلّـق على نجـاف بيتـه صحيفـة تشتمـل على وصيـة موسى لبني إسرائيل ، أن يحتفظوا بالإيمان بـإلـه واحـد ولا يبـدلوه ولو عُـذِّبوا وقُتِلوا ، فـاليهود حين ينزحون من منـازلهم يـأخـذونهـا معهم ، وهي عـادة متَّبعـة عنـد اليهود إلى يومنـا هـذا ، ويظهر أن يهـود بـلاد العرب كانوا يضعون تلك الصحيفة في داخل النجـاف خوفـاً من إتلاف الهواء أو مسِّ الأيـدي ، فلمـا رحلوا عن ديـارهم هـدموا نجـاف البيوت وأخذوها » .

ومنـاقشـة سريعـة لهـذا القول تجعلنـا نقـول ـ إن سلَّمنـا أنَّ هـدم البيوت لم يكن القصـد منـه التخريب ، بل عـادة يهـوديـة جـاءت من التلمود ـ : إن ذلك لا يستـدعي هـدم البيوت عن آخرهـا ، وإلاّ لكان الفرد منهم لو انتقل إلى بيت آخر في حيِّه هدم بيتـه ليـأخـذ الصحـائف معه ! فـالثـابت أنهم هـدموا بيوتهم حتى نقضوا الجـدران ، فـالهـدف ألاّ ينتفع المسلمون بها .

وهي عـادة معروفـة إلى زمننـا هـذا ، إلى عـامنـا هـذا ، فتـدمير المـدن ، وتفجير البيوت ، وهـدم مـا بقي قـائمـاً من جـدران أمر متّبـع معروف ، وسياسة انتهجت ذلـك كلـه بغيـاً وحسـداً وبغضـاً لغيرهم من الأمم .

☆ ☆ ☆

فَيءُ بني النَّضير :

كان فيء بني النضير خمسين درعـاً ، وخمسين بيضـة[1] ، وثلثمـائـة وأربعين سيفاً . ولم يخمِّس رسول الله ﷺ ذلك الفيء[2] ، فكانت أموال بني النضير وعقاراتهم فيئاً لرسول الله ﷺ خـاصـة[3] . فمـاذا فعل رسول الله ﷺ بهذا الفيء ؟ وهل استأثر به لنفسه ؟ .

أولاً : بيَّن الله سبحـانـه وتعـالى حكم الفيء ، وأنـه للمهـاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان : ﴿ مـا أفـاءَ اللهُ على رَسُولِـهِ من أَهْلِ القُرَى فللهِ ولِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبى واليَتـامى والمَسـاكِينِ وابنِ السَّبِيلِ ،

---

(١) البيضة : (واحدة البَيْض من الحديد) ، أي الخوذة ، لسان العرب : جـ ٧ ص ١٢٤ .

(٢) الفيء : الخَرَاج والغنيمة (بغير قتال) ، مختار الصحاح : ص ٥١٦ .

(٣) السيرة الحلبيـة : جـ ٢ ص ٢٨٢ . الاكتفـاء : جـ ١ ص ١١٢ / أ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٥٥ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٠٠ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٤٨ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١١٢ . البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٧٦ .

كيلا يكُونَ دُولَةً بينَ الأغْنِياء منكم ، وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نهاكُم عَنْهُ فانتهُوا واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَاب ﴾[1] .

ثانياً : كانت الأحداث بعد إجلاء بني النضير كالتالي :

دعا ﷺ الأنصار ، أوسهم وخزرجهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين من إنزالهم في منازلهم وإيثارهم على أنفسهم بأموالهم ، ثم قال ﷺ لهم : إن إخوانكم المهاجرين ليس لهم أموال ، فإن شئتم قسمت هذه الأموال مع أموالكم بينكم جميعاً ، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة .

وقال ﷺ : « وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُّكنى في منازلكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم » .

فالمهاجرون في منازل الأنصار يشاركونهم في أرضهم ونخلهم ، فاشترط ﷺ أن يعطي المهاجرين خاصة[2] ، على أن يخرجوا من دور الأنصار وأموالهم .

ومن النصوص التاريخية الواردة : « وسَّع - ﷺ - بالفيء على

---

(١) الحشر : ٧ ، والآية التي تليها : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ ، إلى آخر آيات سورة الحشر .

(٢) وليس في الأمر مخالفة لنص الآية الكريمة ، فالظرف هنا خاص جداً ، ليرفع مشقة المهاجرين عن الأنصار ، وبموافقتهم بعد استشارتهم .

المهـاجرين »[1] . و « ليرفـع بـذلـك مـؤنتهم ـ أي مشقتهم ـ عن الأنصار »[2] .

موقف الأنصار : تكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فقالا : يا رسول الله ، تقسم بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا ، بل نحب أن تقسم ديارنا وأموالنا على المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وعشائرهم وخرجوا حباً لله ولرسوله ، ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها ، اقسم هذه فيهم ، واقسم لهم من أموالنا ما شئت ، فنادت الأنصار : رضينا وسلّمنا يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار »[3] .

لقد كان الأنصار يرون ذلك من أعظم النِّعم ، قاسموا المهاجرين أموالهم وديارهم ، وآخى ﷺ بينهم ، وتنافس الأنصار في رعاية المهاجرين وتلقُّفهم ، حتى آل أمرهم إلى القرعة ، فأي أنصاري تخرج القرعة باسمه يذهب بالمهاجري ، فبلغت مواساتهم الغاية القصوى رضي الله عنهم[4] .

---

(١) عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٠ .
(٢) السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٠٠ . الروض الأُنف : جـ ٣ ص ٢٥٠ .
(٣) عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥١ . السيرة النبويّة والآثار المحمديّة : جـ ٢ ص ١٠١ . السيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ١٥٣ .
(٤) السيرة النبويّة والآثار المحمديّة : جـ ٢ ص ١٠٠ .

وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : جزاكم الله يا معشر الأنصار خيراً[1] ، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلاّ كما قال الغنوي :

جزى الله عنا جعفراً حين أزلفت بنا فعلنا في الواطئين فزلَّتِ
أبوا أن يملُّونا ولو أن أُمَّنا تلاقي الذي يلقون منا لملَّتِ[2]

فقسّم رسول الله ﷺ الفيء بين المهاجرين ، واستثنى الغني منهم ، فلم يعم العطاء كل المهاجرين ، وأعطى من الأنصار رجلين محتاجين هما : سهل بن حنيف ، وأبو دجانة ، وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق ، وكان سيفاً له ذكر عندهم .

لقد كان فيء بني النضير لفقراء المجتمع الإسلامي ، الذي كان محدّداً بالمدينة المنورة آنذاك ، فلم يعم كل المهاجرين ، بل استثني غنيُّهم لغناه ، وأُعطي فقير الأنصار لحاجته ، ومن الطبيعي أن يعم العطاء الأكبر المهاجرين : ﴿ للفقراء المهاجرين الذينَ أُخرِجُوا من دِيَارِهم وَأَموالِهِم يبتَغُونَ فضلاً من اللهِ ورضواناً وَيَنْصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ أولئِكَ هم الصادِقون ﴾[3] .

---

(١) وأنزل عزّ وجل فيهم : ﴿ ويُؤثِرونَ على أنفُسِهم ولو كانَ بهم خَصاصَةٌ ﴾ ، الحشر : ٩ ، أي : فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون به .

(٢) فتوح البلدان : ص ٣٤ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥١ .

(٣) الحشر : ٨ .

وكان ﷺ يزرع بعض أرض بني النضير ، تحت النخل ، فيدَّخر من ذلك قوت أهله سَنَة ، وما فضل يجعله في الخيل والسلاح عدة في سبيل الله .

وأنزل الله سبحانه وتعالى في أمر بني النضير سورة الحشر . لذلك كان يسميها ابن عباس رضي الله عنهما سورة بني النضير ، كما جاء في البخاري .

وفي سورة الحشر ما وعده المنافقون بزعامة عبد الله بن أُبيّ بن سلول لبني النضير ، أن اثبتوا وتمنَّعوا فإنكم إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم ، وكان هذا كله كذباً .

قال عز وجل : ﴿ أَلَم تَرَ إلى الذين نَافَقُوا يَقُولونَ لإخوانِهم الذينَ كَفَروا مِن أَهْلِ الكتاب[١] لَئِن أُخرِجْتُم لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُم وَلاَ نُطِيعُ فِيكُم أَحَداً أَبَداً[٢] ، وَإن قُوتِلْتُم لننصرنَّكُم ، واللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُم لَكَاذِبونَ ، لَئِن أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُم ، وَلَئِن قُوتِلُوا لا ينصُرُونَهُم وَلِئِن نصروهم لَيُوَلُّنَّ الأَدبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُون ، لأَنتُم أَشَدُّ رَهْبَةً في صُدورِهم[٣] مِنَ اللهِ ذلكَ بأَنَّهم قَوْمٌ لا يَفْقَهُون[٤] ، لا يُقَاتِلونَكُم جَمِيعاً

(١) وهم بنو النضير .

(٢) أي في خذلانكم ،

(٣) في صدور اليهود من بني النضير .

(٤) لا يفقهون قدرة الله فلا يرهبون عقابه .

إلاّ في قُرىً مُحَصَّنةٍ أو مِن وَرَاء جُدُر بَأْسُهُم بَيْنَهُم شَدِيدٌ تَحْسَبُهُم جَمِيعاً وَقُلُوبُهُم شَتَّى[1] ذلكَ بِـأَنَّهُم قومٌ لا يَعْقِلُون ، كَمَثَلِ الـذينَ من قَبْلِهِم[2] قَرِيبـاً ذَاقُـوا وَبَـالَ أَمْرِهِم وَلَهُم عَـذَابٌ أَلِيمٌ ، كَمَثَـلِ الشَّيطَـانِ إذْ قَـالَ لـلإنْسَـانِ اكْفُر فَلَمَّـا كَفَرَ قَـالَ إنِّي بَرِيءٌ مِنْـكَ إنِّي أَخَـافُ اللهَ رَبَّ العَـالَمين ، فكَانَ عـاقِبَتَهُما أَنَّهُما في النَّـارِ خَـالـدين فيهـا وَذلِـكَ جَـزَاءُ الظالمين ﴾[3] .

(١) شتّى : متفرّقة ، يعني : المنافقين واليهود .

(٢) الذين من قبلهم : بنو قَيْنُقَاع .

(٣) الحشر : ١١ ـ ١٧ .

غزوة ذات الرّقاع

☆ ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اذكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيكُم إذْ هَمَّ قَوْمٌ أن يَبْسُطُوا إليكُم أيديَهُم فكَفَّ أيديَهُم عنكُم واتَّقُوا اللهَ وَعَلى اللهِ فليتوكَّلِ المؤمِنُونَ ﴾
[المائدة : ١١]

وفي جمادى الأولى سنة ٤ للهجرة ، سار رسول الله ﷺ إلى نجد يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان ، حين بلغه ﷺ أنّهم جمعوا الجموع لمحاربته ، فخرج في أربعمائة من أصحابه رضي الله عنهم .

وسُمّيت هذه الغزوة بذات الرِّقاع[1] ، واختُلِف في سبب التسمية وهذه هي الآراء :

١ - سُمّيت ذات الرقاع لأنهم رقّعوا فيها راياتهم .

٢ - أو شجرة بذلك الموضع يقال لها ذات الرقاع .

---

(١) كما سُمّيت بغزوة محارب ، أو غزوة بني ثعلبة ، أو غزوة بني أنمار ، أو غزوة الأعاجيب لما وقع فيها بعض الأمور العجيبة . لأخبار ذات الرقاع راجع : الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٢ / ب . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٢ . الروض الأنف : جـ ٣ ص ٢٥٣ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٦٠ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٢٨٤ . الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١١٩ . البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٨٣ . ابن خلدون : جـ ٢ ص ٢٨ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٥٥ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٠٢ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١١٩ .

٣ ـ أو إنها أرض فيها بقع سود وبقع بيض كأنّها مرقّعة برقاع مختلفة .

٤ ـ أو لأن خيلهم كان بها سواد وبياض .

٥ ـ أو لأن الصلاة رُقِّعت فيها ، كما سنرى .

٦ ـ والأرجح ما رواه البخاري من طريق أبي موسى الأشعري ، قال : « خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نتعقّبه ، فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدماي ، وسقطت أظافري ، فكنا نلف على أرجلنا الخِرَق ، فسميت غزوة ذات الرقاع ، لما كنا نعصب من الخِرَق على أرجلنا »[1] .

وبلغ رسول الله ﷺ ومن معه نجداً ، ولم يكن بين المسلمين والمشركين حرب .

وفي ذات الرقاع ، أراد المشركون الغدر بالمسلمين ، فقالوا : « إن لهؤلاء صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأبكارهم ـ هي صلاة العصر ـ فأجمعوا أمركم فميلوا عليهم مَيْلة واحدة »[2] .

فصلى ﷺ بطائفة من القوم وطائفة أخرى تحرسهم ، فصلى

---

(١) الروض الأُنف : جـ ٣ ص ٢٥٣ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٥٨ .

بالذين يلونه ركعتين ، ثم تأخّر الذين يلونه على أعقابهم فقاموا في مصاف أصحابهم ، ثم جاء الآخرون فصلى بهم ركعتين والطائفة الأُولى تحرسهم حتى سلَّموا ، فكانت للنبي ﷺ أربع ركعات ، وللقوم ركعتان ركعتان ، فيومئذ أنزل الله عز وجل في إقصار الصلاة ، وأُمر المؤمنون بأخذ السلاح عند الصلاة[1] .

غَوْرَثُ بن الحارث :

وفي ذات الرقاع ، قال غَوْرَث بن الحارث لقومه من غطفان : ألا أقتل لكم محمداً ؟ قالوا : بلى ، وكيف تقتله ؟ قال : أفتك به على غفلة ، فجاء غورث إلى رسول الله ﷺ ، والسيف معلَّقٌ في شجرة ، ورسول الله نائم ، فأخذ غورث السيف ، وأيقظ رسول الله ، ثم قال : يا محمد ، أتخافني ؟ قال ﷺ : لا ، وما أخاف منك ؟ غورث : وفي يدي السيف ؟ قال ﷺ : لا ، يمنعني الله تعالى منك .

ذكر البخاري أنه لما همَّ غورث بقتل رسول الله ﷺ رُمي بالزُّلَّخَة[2] فسقط السيف من يده ووقع على الأرض ، فأخذه رسول الله ﷺ وقال : من يمنعك ؟ فقال غورث : كن خير آخذ . فقال رسول

(١) الطبري : جـ ٢ ص ٥٥٧ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٢ . الروض الأُنف : جـ ٣ ص ٢٥٣ . البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٨٤ .

(٢) الزُّلَّخَة : (بتشديد اللام) ، وجع يَعْرِضُ في الظهر . قال ابن سيده : هو داء يأخذ في الظهر والجنب ، لسان العرب : جـ ٣ ص ٢٢ .

الله ﷺ : « تشهد أن لا إلــه إلا الله ، وأني رسـول الله » ، غـورث : أعاهدك أني لا أُقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونـك . فخلّى رسول الله ﷺ سبيله ولم يعاقبه حرصاً على استئلاف قلوب المشركين ، وليحـدثهم غورث بما رأى وحـدث . فجـاء إلى قومـه فقـال : جئتكم من عنـد خير الناس[1] .

وأنزل عز وجل بمناسبة هـذه الحـادثـة : ﴿ يـا أيُّهـا الـذينَ آمَنُوا اذكُرُوا نِعْمَــةَ اللهِ عليكُم إذْ هَمَّ قَـوْمٌ أَن يَبْسُطُـوا إليكُم أيــديَهُم فكَفَّ أيديَهُم عنكُم واتَّقُوا اللهَ وعَلَى اللهِ فليتوكَّلِ المؤمِنُونَ ﴾[2] .

ثم أرسـل ﷺ جعـال بن سراقـة ـ من أهـل الصُّفّـة ـ إلى المـدينـة مبشِّراً بسلامة المسلمين جميعاً .

وفي ذات الرقاع أيضاً ، جاء رجل بفرخ طائر ، فأقبل أحد أبو يه حتى طرح نفسه بين يدي الذي أخذ فرخه ، فعجب الناس من ذلـك ، فقال ﷺ : « أتعجبون من هذا الطـائر ؟ أخـذتم فرخـه فطرح نفسـه رحمة لفرخه ، والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه »[3] .

☆ ☆ ☆

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٢ / ب . الروض الأُنف : جـ ٣ ص ٢٥٥ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٢٠ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) المائدة : ١١ ، وقيل نزلت هذه الآية في عمرو بن جحاش ومـا همّ بـه من إلقـاء الحجر على رسول الله ﷺ ، (الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٢ / ب) .

(٣) السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٢٨٩ .

غزوة بدر الآخرة

«شعبان ٤ هـ»

☆ ﴿ الذينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّـاسَ قـد جَمَعُـوا لَكُم فـاخشَـوْهُم فَزَادَهُم إيماناً وَقَـالُوا حَسْبُنَـا اللهُ وَنِعْمَ الوكيل ﴾ .

[آل عمران : ١٧٣]

قال أبو سفيـان حين منصرفـه من أُحـد : موعـد مـا بيننـا وبينكم بدر ، أي موسمها ، حيث يحضره الناس ويقيمون به ثمانية أيام ، لـذلـك سُمِّيت هذه الغزوة (بدر الموعد) ، أو (بدر الثالثة)[١] .

الموقف في مكّة :

اعتمر نعيم بن مسعـود الأشجعي ، فقـدم على قريش ، فقـال بعض رجالاتها : يا نعيم ، من أين كان وجهك ؟ قـال : من يثرب ، قـالوا : وهل رأيت لمحمد حركة ؟ قال : تركته على تعبئة لغزوكم - ذلـك ونعيم

(١) لأخبار غزوة بدر الآخرة راجع : الاكتفـاء : جـ ١ ص ١١٢ / أ . ابن خلـدون : جـ ٢ ص ٢٩ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٥٩ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٣ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٢٩٠ . الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٢٠ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٦٩ . السيرة النبوية والآثـار المحمدية : جـ ٢ ص ١٠٥ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٢٣ . البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٨٧ .

مشرك لم يسلم بعد ـ ، فقال له أبو سفيـان : يـا نعيم ، ارجع إلى يثرب وخذِّل المسلمين عند الخروج لبدر ، إن هذا عـام جـدب ، ولا يصلحنـا إلاَّ عـام ترعى فيـه الإبل الشجر ، ونشرب فيـه اللبن ، وقـد جـاء أوان موعد محمد ، فالحق بيثرب فثبطهم وأعلمهم أنّا في جمع كثير ، ولا طـاقـة لهم بنا ، فيأتي الخُلْف منهم أحب إليَّ من أن يأتي من قبلنا ، ولـك عشر فرائض[1] أضعها لـك في يـد سهيل بن عمرو يضمنهـا . فجـاء سهيل بن عمرو إليهم ، فقال نعيم لسهيل : يـا أبـا يزيـد ، أتضمن هـذه الفرائض وأنطلق إلى محمد فأثبِّطه ؟ فقال : نعم . فخرج نعيم حتى قدم المدينة .

الموقف في المدينة :

وفي المـدينـة أرجف نعيم بكثرة جموع أبي سفيـان ، وصـار يطوف بالمسلمين حتى قذف الرعب في القلوب[2] ، ولم يبق لهم نيَّـة في الخروج ، فاستبشر المنافقون واليهود ، وقالوا : محمد لا يفلت من هذا الجمع .

وجـاء أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلى رسول الله ﷺ وقـد سمعـا ما أُرجف المسلمون به ، وقالا له : يـا رسول الله ، إنّ الله مظهر نبيّـه ، ومعز دينه ، وقد وعدنا القوم موعـداً لا نحب أن نتخلَّف عنـه ، فيرون

(١) وفي السيرة الحلبية : جعل أبو سفيان لنعيم عشرين بعيراً .

(٢) مما قاله نعيم لينال جـائزة أبي سفيـان : ليس خروجكم برأي ، ألم يجرح محمـد في نفسـه ؟ ألم يقتل أصحابه؟! إنّه يُذكِّر بنتائج أُحُد .

أن هذا جبناً ، فسر لموعدهم ، فوالله إن في ذلـك لخيرة . فسر رسول الله ﷺ بذلك ، ثم قال : « والذي نفسي بيـده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحـد[1] » . فـأذهب الله عنهم مـا كانوا يجـدون ، وحمل لواء رسـول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وخرج المسلمون ومعهم تجـارات إلى بدر[2] .

وفي مكـة ، قـال أبـو سفيـان لقريش : لقـد بعثنـا نعيمـاً ليخـذّل أصحـاب محمـد عن الخروج ، ولكن نخرج نحن فنسير ليلـة أو ليلتين ثم نرجع ، فإن كان محمد لم يخرج وبلغه أنا خرجنا فرجعنـا لأنـه لم يخرج ، وكان هذا لنا عليه ، وإن خرج أظهرنا أن هذا عام جدب ولا يصلحنـا إلا عام عشب ، قالوا : نِعْمَ ما رأيت . فخرج أبو سفيان في قريش وهم ألفـاً ومعهم خمسون فرسـاً حتى نزل مَجَنَّـة من نـاحيـة مرّ الظَّهْران ، ثم قـال : يـا معشر قريش ! إنـه لا يصلحكم إلا عـامُ خِصْب ترعون فيـه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جَـدْب ، وإني راجع فارجعوا ، فرجع ورجع الناس ، فسمَّـاهم أهل مكـة جيش السَّويق[3] ، يقولون : إنما خرجتم تشربون السَّويق .

---

(١) خرج مع رسول الله ﷺ ألف وخمسمائـة من أصحـابـه الكرام ، ومن الخيل عشرة أفراس . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٢٩٠ .

(٢) ربحت هذه التجارات الضِّعف .

(٣) وهذه غير غزوة السَّويق التي عُرِفت بهذا الاسم أيضاً سنة اثنتين للهجرة .

لقد أراد أبو سفيان ومن معه ألاّ يخرج رسول الله بالمسلمين ، فيزيد المسلمين ذلك جراءة ، فأحبَّ أن يكون الخَلْف من قبل المسلمين ، ليبقى في سُمْعَةِ نتائج أُحد بين القبائل وفي قومه أيضاً ، مع أن هذه النتائج انهارت بعد حمراء الأسد ، فتحقَّق عكس ما أراد ، فكانت العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين .

وأقام ﷺ على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده ، وذلك مدة الموسم التي هي ثمانية أيام ، وصار المسلمون كلما سألوا عن قريش وقيل لهم قد جمعوا لكم يقولون : حسبنا الله ونعم الوكيل . وقيل لهم لما قربوا من بدر إنها قد امتلأت من الذين جمعهم أبو سفيان - يرعبونهم ويرهبونهم - حتى قال المنافقون : إنما أنتم لهم أكلة رأس إن ذهبتم إليهم لا يرجع منكم أحَد ، فيقول المؤمنون : حسبنا الله ونعم الوكيل . فلما قدموا بدراً وجدوا أسواقاً لا ينازعهم فيها أحد ، فأنزل عز وجل : ﴿ الذينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قد جَمَعُوا لَكُم فاخشَوْهُم فَزادَهُم إيماناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيل ﴾[1] .

وإلى بدر وصل في هذه الآونة مَخْشِيٌّ بن عمرو الضَّمْريّ ، وكان رسول الله ﷺ قد وادعه على بني ضمرة في غزوة وَدَّان ، فقال :

---

(١) آل عمران : ١٧٣ .

يا محمد ، أجئت للقاء قريش على هذا الماء ؟ قال ﷺ : « نعم يا أخا بني ضمرة ، وإن شئتَ مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك » ، قال : لا والله يا محمد ، ما لنا بذلك منك من حاجة[1] .

ويظهر الحديث أن مخشي إنما جاء رفداً وعوناً لقريش ، بدليل أن معه قوماً محاربين من بني ضمرة ، فلما رأى تخلُّف أبي سفيان تردد وارتبك ، فأراد ﷺ أن يتيقَّن مخشي من قوة المسلمين ، وما قال ﷺ : « وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ثم جالدناك » إلا من بعد ما رأى معه قومه المحاربين ، وأنه وصل رفداً لأبي سفيان ، وبذلك يكون مخشي قد نقض عهده مع رسول الله ﷺ ، وما منعه من المجاهرة بذلك إلاّ تخلُّف أبي سفيان ، فهاب الموقف .

وبعد انقضاء موسم بدر عاد رسول الله ﷺ ومن معه إلى المدينة ، وسار معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى مكة وأخبر أهلها بخروج المسلمين إلى بدر وكثرتهم ، وأنهم كانوا أصحاب الموسم ، وقال :

قد نَفَرَتْ من رُفقَتَيْ مُحَمَّدِ   وعَجْوَةٍ من يَثْربٍ كالعُنْجُدِ[2]

---

(1) الطبري : جـ ٢ ص ٥٥٩ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٢٣ و ١٢٤ .

(2) العُنْجُدُ : الزبيب ، أو حب العنب ، والعَنْجَدُ والعُنْجَدُ : رديء العنب ، وقال أبو حنيفة : العُنْجُدُ والعُنْجَدُ : الزبيب ، لسان العرب : جـ ٣ ص ٣١٠ .

تَهْوِي على دينِ[1] أبيهـا الأَتْلَـدِ[2]   قد جَعَلَت ماءَ قُدَيـدٍ[3] مَوْعِدِي
وماءَ ضَجْنَان[4] لها ضُحَى الغَدِ[5]

فقال صفوان بن أُميَّة لأَبي سفيان : قد والله نهيتك يومئذ أن تعد القوم وقد اجترؤوا علينا ، ورأونا أخلفناهم ، وإنما خلفنا الضعف[6] .



---

(١) الدين هنا : العادة .

(٢) الأَتلد : القديم ، والتالد : المال القديم الأصلي الذي ولد عندك ، وهو نقيض الطارف ، لسان العرب : جـ ٣ ص ٩٩ .

(٣) ماء قُدَيد : ماء قريب من مكة ، معجم البلدان : جـ ٤ ص ١٣١٣ .

(٤) ضَجَنَـان : مكان قريب من مكـة ، قـال الواقـدي : بين ضَجَنَـان ومكـة خمسـة وعشرون ميلاً ، معجم البلدان : جـ ٣ ص ٤٥٣ .

(٥) الأبيات في : ابن هشام : جـ ٣ ص ١٢٤ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٥٩ .

(٦) السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٢٩١ .

غزوة دومة الجندل

بلغ رسول الله ﷺ أن بدومة الجندل[1] جمعاً كثيراً يظلمون من مرَّ بهم ، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة ، فندب ﷺ الناس لذلك ، فخرج في ألف من المسلمين ، وذلك في أواخر السنة الرابعة للهجرة[2] ، واستخلف على المدينة سباع بن عُرْفَطَة الغفاري .

فكان ﷺ يسير ليلاً ويكمن في النهار ، ومعه دليل ماهر من بني عذرة يقال له : مذكور . فلما دنا من دومة الجندل ، جاء الخبر لأهلها ، فتفرَّقوا ، ونزل ﷺ بساحتهم ، فلم يلق بها أحداً ، وبعث

---

(١) دومة : بضم الدال وفتحها ، سميت بدومة بن إسماعيل لأنه نزلها ، وأخبار هذه الغزوة في : الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٣ / ب . الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٢٢ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٤ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٦٤ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٢٩٢ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٢٦ .

(٢) وفي ابن هشام في (ربيع الأول ٥ للهجرة) ، وفي السنة الرابعة أمر ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب يهود ، وقال : « إني لا آمن أن يبدّلوا كتابي » ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٩١ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٦١ .

السرايا فرجعت ولم تلقَ أحداً ، وأخذ محمد بن مسلمـة رجلاً منهم وجـاء بـه إلى رسول الله ﷺ فسـألـه عن قومـه ، فقـال : هربوا حيث سمعـوا بك ، فعرض عليه الإسلام ، فأسلم ، وعاد ﷺ ومن معه إلى المدينة .



غزوة الخندق

«غزوة الأحزاب»

☆ ﴿ إذْ جاؤوكُم من فَوْقِكُم وَمِن أسْفَلَ مِنكُم وإذْ زَاغَتِ الأبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونا ، هُنَالِكَ ابتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلزِلُوا زِلزالاً شَدِيداً ﴾ .

[الأحزاب : ١٠ و ١١]

غزوة الخندق

«غزوة الأحزاب»

شوال (٥هـ) - شباط فبراير ٦٢٧ م

☆ ﴿ الذينَ آتيناهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفونَهُ كَمَا يَعْرِفونَ أَبْنَاءَهُم وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُم لَيَكتُمُونَ الحَقَّ وَهُم يَعْلَمُون ﴾ .

[البقرة : ١٤٦]

سَبَبُها : أُجلي بنو النَّضير لأسباب تقدَّم ذكرها ، فسار جمع من رجالاتهم ، منهم سيِّدهم حُيَيّ بن أَخْطَب النَّضري ، وعظيمهم سلام بن مشكم ، ورئيسهم كنانة بن أبي الحُقَيق ، وهَوْذَة بن قيس الوائلي ، وأبو عامر الفاسق ، إلى أن قدموا مكة المكرمة على قريش ، يدعونهم ويحرِّضونهم على حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا : إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله[١] .

---

(١) أخبار غزوة الخندق في : الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٣ / ب . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٢٠ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٥ . ابن خلدون : جـ ٢ ص ٢٩ . البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٩٢ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٢٧ . الروض الأنف : جـ ٣ ص ٢٧٦ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٦٤ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٢٨ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٨١ .

فقال أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، وأحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد ، وقال : لكن لا نأمنكم إلا إن سجدتم لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ، ففعلوا ، فقالت قريش لأولئك اليهود : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم ، أخبرونا عمّا أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أمْ دين محمد ؟ أنحن أهدى سبيلاً أمْ محمد ؟ فقالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه ، وأنتم أهدى سبيلاً ، لأنكم تعظّمون هذا البيت ، وتقومون على السقاية ، وتنحرون البدن ، وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم ، فأنتم أوْلى بالحق منه . فأنزل الله فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤمِنُونَ بالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ[1] وَيَقُولونَ لِلَّذينَ كَفَروا هؤُلاءِ أَهدى مِن الذينَ آمَنوا سَبِيلاً ، أُولئكَ الذينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾[2] .

وقول اليهود هذا يخالف عقيدتهم ودينهم الداعي إلى عبادة الله الواحد ، إن تقديمهم دين قريش وتحسينه ، وجعله أهدى سبيلاً وهو الدين الوثني يوصلهم إلى هدفهم وغرضهم الذي يشغلهم ويفتت

---

(١) الجِبْتُ : كلمة تقع على الصَّنَم والكاهن والساحر ونحو ذلك ، مختار الصحاح : ص ٩١ . والطّاغُوتُ : كل ما عبد من دون الله عز وجل ، مأخوذ من الطغيان ، و (الطّاغوت) في مختار الصحاح : ص ٣٩٣ : الكاهن والشيطان وكُلُّ رأسٍ في الضّلال ، والجمع (الطّواغيت) .

(٢) النساء : ٥١ و ٥٢ .

كبدهم ، ألا وهو محاربة المسلمين وطردهم من المدينة ، وإعادة إخوانهم إلى ديارهم ، بل إن الهدف أبعد وأشمل : « إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله » .

وكان خيراً لهم أن يعيشوا مع المسلمين في عهودهم التي ضمنها الإسلام منذ وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة ، حيث تمتَّعوا بحق المواطنة كاملاً ، من مؤامراتهم ووقوفهم دائماً في الصفّ المعادي للمسلمين . ولكن ، إن انتصار الوثنية في جزيرة العرب انتصار لأهدافهم ، فمع المِنَّة والفضل على قريش ، يحقِّقون أطماعهم الماديَّة والسياسيَّة .

يقول الأستاذ (ولفنسون) في كتابه تاريخ اليهود في بلاد العرب ، ص ١٤٢ : « والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السَّواء ، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين قريش الوثنيين ، حيث فضَّل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية » .

والذين قالوا لقريش هذا ، هم سادة اليهود وزعماؤهم وعلماؤهم ، فهم يمثِّلون قومهم كافة ، لذلك فهم يستحقون عقاباً وتأديباً . وهذا يدل على أن العلم وحده لا يكفي ، يحتاج الإنسان إلى نور العلم ، وروح العلم ، والتفاعل الصادق مع العلم وبالتالي اتباع العلم : ﴿ أفرأَيتَ مَنِ اتَّخذَ إلهَهُ هَواهُ وأَضَلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ

وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ من بَعْدِ اللهِ أَفلا تَذَكَّرون ؟ ﴾[1] .

ولذلك كان من دعاء رسول الله ﷺ : « اللهم أسألك أن تريني الحق حقاً وارزقني اتباعه » . العلم وحده غير كاف ، فمع العلم يحتاج الإنسان إلى مخالفة الهوى ، ومخالفة النفس لاتباع الحق أينما وُجد .

ولم يضر الإسلام شيئاً عدم التزامهم واتباعهم له ، وهم لو اتبعوه ، ما خسروا شيئاً ، فموسى عليه الصلاة والسلام مقدَّس مكرَّم في القرآن الكريم ، وهم يعرفون و يعلمون أنه رسول الله حقاً وصدقاً ، قال لهم عمرو بن سُعْدى القرظي ـ وهو من زعمائهم الدينيين[2] ـ : « يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فأطيعوني وتعالوا نتَّبع محمداً ، والله إنكم لتعلمون أنه نبيّ قد بشَّرنا به وبأمره ابن الهَيبَّان أبو عمير ، وابن حراش ، وهما أعلم يهود جاءانا يتوكَّفان[3] قدومَهُ وأمرانا باتباعه ، جاءانا من بيت المقدس ، وأمرانا أن نقرئه منهما السَّلام ، ثم ماتا على دينهما ودفنّاهما بِحَرَّتنا هذه » .

فأُسكت القوم فلم يتكلم منهم متكلِّم .

---

(١) الجاثية : ٢٣ .

(٢) مرَّ عمرو بن سُعْدَى القُرَظي على ديار بني النضير وقد صارت يباباً ، وقد كانت بنو النضير أشرفَ من بني قريظة ، ثم رجع إلى بني قريظة فنفخ في بوقهم فاجتمعوا ، فقال له الزبير بن باطا : يا أبا سعيد ، أين كنت منذ اليوم لم تزل ؟ وكان لا يفارق الكنيسة ، فقال ما قال أعلاه .

(٣) تَوَكَّف الأثر : تتبَّعه ، والتوكُّف : التوقُّع والانتظار ، لسان العرب : جـ ٩ ص ٣٦٤ .

ثم أعـاد هـذا الكلام ونحوه ، وخوَّفهم بـالحرب والسَّبـاء والجـلاء ، فقال الزبير بن باطا : « قـد والتوراة قرأتُ صفتـه في كتـاب، بـاطـا ، التـوراة التي نـزلت على مـوسى ، ليس في المَثـاني الـذي أحْـدَثنـا »[1] ، ﴿ الذينَ آتيناهُمُ الكتابَ يَعْرِفونَهُ كما يَعْرِفونَ أبناءَهُم وَإنَّ فَرِيقـاً مِنهُم ليكتُمُونَ الحَقَّ وَهُم يَعْلَمُون ﴾[2] .

وسُرَّت قريش بمـا قـال وفـد اليهود ، ونشَّطهم لمـا دعوهم إليـه من حرب رسـول الله ﷺ ، وعنـد ذلـك خرج من بطـون قريش خمسـون رجلاً ، وتحالفوا وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبـة متعلّقين بـأستـارهـا ، أن لا يخـذل بعضهم بعضـاً ، ويكونوا كلهم يـداً واحـدة على محمـد مـا بقي منهم رجل .

ثم سـار أولئــك النفر من اليهـود إلى غَطَفــان من قيس عَيْـلان ، ودعوهم وحرَّضوهم على حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا لهم : إنَّـا سنكون معكم ، وإن قريشـاً قـد بـايعوهم على ذلـك ، (وجعلت يهود لغطفـان تحريضاً على الخروج نصف تمر خيبر كل عام)[3] .

---

(١) السيرة النبـويـة لابن كثير : جـ ٣ ص ١٥٥ . البـدايـة والنهـايـة : جـ ٤ ص ٨٠ . ابن هشـام : جـ ٣ ص ١٤٧ .

(٢) البقرة : ١٤٦ .

(٣) وفي السيرة الحلبيـــة : جـ ٢ ص ٣٢٩ : (وجعلـوا لهم تمر خيبر سنـــة إن هم نصروهم عليـــه) ، و (نصف تمر خيبر) في الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٣ / ب .

ويمكن إجمال سياسة اليهود في الحجاز بثلاث نقاط :

١ ـ المهادنة ما دام رسول الله ﷺ ظاهراً قوياً .

٢ ـ الدسّ بالسر ، والتحريض ضد المسلمين بالخفاء ، للقضاء عليهم وعلى رسول الله ﷺ .

٣ ـ العداء الظاهر ، ودعم القوى المعادية لرسول الله ﷺ علناً عندما تسمح الظروف بذلك ، وهي الظروف التي يتراءى لهم من خلالها قوة المشركين ، وقرب انهيار المسلمين .

كل ذلك هدفه الحفاظ على المكانة المتميِّزة لهم عندما كان العرب في فرقتهم وقبائليتهم ، وصار هدف اليهود كما قال أحد الكتاب إبّان الثورة الفرنسية : « أُهدي إلى كل من يطبّق من العمال سياسة التخريب سلامي الأُخوي ، وإعجابي القلبي »[١] .

يصعب تصديقهم ولو ادعوا بأن المحبّة لغيرهم آخذة من نفوسهم مأخذها ، فالحسد والحقد مرضان لازما تصرفاتهم في مسيرة تاريخهم .. والهدف هنا : تقويض أركان الدولة العربية الإسلامية ، وأعمالهم هذه شواهد جليَّة واضحة تدل على عجزهم في المجابهة العلنية وجهاً لوجه .

---

(١) (روح الثورات والثورة الفرنسية) للدكتور غوستاف لوبون ، ترجمة محمد عادل زعيتر ، مطبعة الشرق بدمشق ، ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م ، ص ٣٠٠ .

وتجهّزت قريش وأتباعها من القبائل .

وتجهّزت غطفان وأتباعها ، وقاد قريش أبو سفيان بن حرب ، وكانوا أربعة آلاف ، ومعهم ثلثمائة فرس ، وألف وخمسمائة بعير ، وعقد اللواء في دار الندوة(١) ، وحمله عثمان بن طلحة بن أبي طلحة(٢) .

وقاد غطفان عُيَيْنَة بن حصن الفزاري(٣) وهم ألف .

وقاد بني مرّة وهم أربعمائة الحرث بن عوف بن حارثة المرّي(٤) .

---

(١) السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٣٠ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٦ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٢١ .

(٢) المقتول والده يوم أُحد ، وكذلك عمّاه عثمان وأبو سعيد بن أبي طلحة ، وقتل يوم أُحد إخوته الأربعة : مسافع والحرث وكلاب والجلاس . وأسلم عثمان بن طلحة فيما بعد ، ويقال له : الحجبي ، لأنه كان من بني عبد الدار وهم سدنة الكعبة ، وكان لهم ولأبيهم حمل لواء قريش عند العرب دون غيرهم .

(٣) اسم عيينة حذيفة ، وسمي عيينة لشتر كان بعينه ، وهو الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام : « الأحمق المطاع » لأنه كان تتبعه عشرة آلاف قناة ، وقال فيه أيضاً : « إن شرّ الناس من ودعه الناس اتقاء شره » ، وفي رواية : « إني أداريه لأني أخشى أن يفسد عليَّ خلقاً كثيراً » ، وفي هذا بيان معنى الشر الذي اتقى منه ، أسلم ثم ارتد ، وأُخذ أسيراً في زمن خلافة الصديق ، ثم أسلم . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٣١ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٥٦ . الروض الأُنف : جـ ٣ ص ٢٧٦ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٢٨ .

(٤) في الاكتفاء والسيرة الحلبية (الحرث) ، وفي الطبري : جـ ٢ ص ٥٩٦ . وابن هشام : جـ ٣ ص ١٢٨ : الحارث بن عوف بن حارثة المري ، وهو الذي قال لقومه ولعيينة : « يا قوم أطيعوني ، دعوا هذا الرجل ـ أي النبي ﷺ ـ وخلّوا بينه وبين عدوّه من العرب » ، فلم يجيبوه لطلبه ، الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٣ / ب .

وقائد بني أشجع أبو مسعود بن رُخَيْلَة[١] .

وقائد بني سليم ـ وهم سبعمائة ـ سفيان بن عبد شمس[٢] .

وقائد بني أسد طليحة بن خويلد الأسدي[٣] .

وكانت أشجع وبنو أسد تتمة العشرة آلاف ، وكان أبو سفيان القائد العام لهذه الجموع[٤] ، وهو المدبِّر لأمرها ، والقائم بشأنها ، وسار بهم متَّجهاً نحو المدينة ليستأصل محمداً وصحبه ودينه .



(١) أسلم بعد ذلك ، واسمه : مسعر بن رُخَيْلَة بن نويرة بن طريف بن سحمة .

(٢) لا يعلم له إسلام .

(٣) أسلم بعد ذلك بعد أن ارتد ، ثم حَسُنَ إسلامه .

(٤) في عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٧ : (وعناج الأمر إلى أبي سفيان) ، أي ملاكه وما يقوم به .

استعدادات المدينة

﴿إنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
[النور : ٦٢]

أَرْسَلَت خُزَاعة موكباً قطع الطريق بين مكة والمدينة في أربع ليال[١] يحمل الخبر إلى رسول الله ﷺ ، فلما سمع رسول الله ﷺ بما أجمعوا عليه ، دعا الناس وأخبرهم خبر عدوِّهم ، وشاورهم في أمرهم ، هل نبرز من المدينة أو نكون فيها[٢] ؟ .

فقال سلمان الفارسي : « يارسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل ، وإذا حوصرنا خندقنا علينا » ، فإن ذلك كان من مكايد الفرس ، وأول من فعله من ملوك الفرس (منوشهر بن

---

(١) معنى ذلك أن الموكب اجتاز المسافة بسرعة كبيرة ، فمتوسط قطع الطريق بين مكة والمدينة ستة أيام ، جاء في السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٣٥ ، لما أرسل أبو سفيان أعرابياً ليغتال رسول الله ﷺ « فإنه يمشي في الأسواق فندرك ثأرنا » ، « خرج ليلاً على راحلته فسار خمساً وصبَّح ظهر الحيِّ يوم سادسة » .

(٢) البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٩٥ ، السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٣٠ .

أيرج بن أفريدون) ، كان في زمن موسى بن عمران عليه السَّلام[1] .

أُعجب الجميع بالفكرة ، لاسيا وأنها فكرة مجرَّبة تشل حركة الخيل ، وهي قوة فعّالة رئيسة عند قريش . وعند ذلك ركب رسول الله ﷺ فرساً له ، ومعه عدد من المهاجرين والأنصار ، فارتاد واستطلع موضعاً يصلح لحفر الخندق[2] ، ويضمن موقعه الدفاع المحكم عن المدينة . فاختار ﷺ موضعاً مناسباً ، لقد جعل جبل سلع خلف ظهره ، وخطَّ الخندق من أُجُم الشَّيخَيْن طرف بني حارثة ، حتى بلغ المذاد[3] ، ثم قطَّعه (لكل عشرة من الناس أربعون ذراعاً يعملون فيها) .

لقد حدَّد ﷺ مواضع الحفر ، وأمر المسلمين بالجد ، ووعدهم النصر إن هم صبروا ، وقال لما بدأ الحفر : « بسم الله بَدِينا ، ولو عبدنا غيره شقينا ، حبذا ربّاً ، وحبذا ديناً »[4] .

وعمل ﷺ في حفر الخندق مع المسلمين[5] ، وحمل التراب على

(١) وكانت غزوة الخندق أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ ، الطبري : جـ ٢ ص ٥٦٦ .

(٢) خندق : كلمة فارسية الأصل ، في لسان العرب : جـ ١٠ ص ٩٣ « وقد تكلمت به العرب » .

(٣) الأُجُم : واحدة آجام المدينة ، بمعنى الأطم ، وآجام المدينة آطامها وحصونها ، والشيخان : موضع بالمدينة ، والمذاد : موضع بالمدينة حيث حفر النبي ﷺ الخندق ، معجم البلدان : جـ ٥ ص ٨٨ .

(٤) الروض الأُنف : جـ ٣ ص ٢٧٧ .

(٥) واستعار المسلمون من بني قريظة آلة كثيرة منها المساحي ، ومفردها : مِسْحاة : المِجْرَفَة من الحديد ، لسان العرب : جـ ٢ ص ٥٩٨ .



في مقدمة الصورة مكان الخندق ويظهر في الأُفق جبل أُحُد



أرض الخندق ، وبني مسجد في موقع خيم الصحابة

ظهره الشريف ، ولن نعلّق طويلاً على هذه المساواة ، وهذه (الديمقراطية) ، ولكننا نقول : لو فعلها زعيم شرقي ، أو رئيس غربي لدوّت الصيحات ، وانتشرت التحليلات ، وأُذيعت التعليقات .. أن انظروا إلى المساواة في أعلى معانيها ، وهذه هي (الديمقراطية) في أسمى صورها ، هذه هي غاية المساواة ، وذرى التطبيق العملي (للديمقراطية) ، ولكنها كانت من محمد بن عبد الله ، النبيّ العربي ، فكأن الأمر أمر عادي ، يقوم به كثيرون في كل زمان ومكان ! .

وحصل للصحابة رضوان الله عليهم تعب وجوع ، لأنه كان في زمن عسرة وعام مجاعة ، ولما رأى ﷺ ماباأصحابه من النَّصب والجوع ، قال متمثلاً بقول ابن رواحة رضي الله عنه :

اللّهم لاعيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة
اللّهم لاخير إلا خير الآخرة فبارك في الأنصار والمهاجرة
اللّهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة
اللّهم لاخير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

فأجابوه رضي الله عنهم بقولهم :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد مابقينا أبداً[1]

---

(١) البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٩٦ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٣٢ .

وقال ﷺ - وهو ينقل التراب وقد وارى الغبار جلد بطنه الشريف - متمثِّلاً بقول ابن رواحة أيضاً :

اللّهم لولا أنت ماهتدينا[1] ولاتصدقنا ولاصلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبّت الأقدام إذ لاقينا
المشركون قد بغرا علينا[2] وإن أرادوا فتنة أبينا[3]

يمدُّ بها صوته مكرِّراً لها : أبينا ، أبينا .

وكان المسلم أثناء الحفر إذا نابته النائبة من الحاجة التي لابدَّ له منها ، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، ويستأذنه في اللحوق بها ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ماكان عليه من عمله رغبة في الخير والثواب : ﴿ إنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وَإذا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لم يَذْهَبُوا حَتّى يَسْتَأذِنُوهُ إنَّ الَّذِينَ يَسْتَأذِنونَكَ أولئِكَ الذينَ يُؤْمِنونَ باللهِ وَرَسولِه فإذا اسْتَأْذَنوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِم فَأْذَن لِمَن شِئْتَ مِنْهُم واستَغْفِر لَهُمُ اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[4] .

وتباطأ رجال من المنافقين ، وجعلوا يظهرون الضعف ، وصار

(١) في السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٨٥ : « واللهِ لولا اللهُ ماهتدينا » .

(٢) في المرجع السابق : « إنَّ الألى قد بغوا علينا » وفي السيرة النبوية والآثار المحمديّة : جـ ٢ ص ١٢٣ : « إنَّ الألى قد رغبوا علينا » .

(٣) البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٩٦ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٨٥ .

(٤) النور : ٦٢ .

الـواحـد منهم يتسلَّـل إلى أهلـه من غير استئـــذان رسـول الله ﷺ[1] ، ﴿ لاتَجْعَلُـوا دُعَـاءَ الرَّسُـولِ بَيْنَكُم كَـدُعَـاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً قَـدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّـذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُم لِـوَاذاً[2] فَلْيَحْـذَرِ الَّـذِينَ يُخَـالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُم فِتْنَةٌ أَو يُصِيبَهُم عَـذَابٌ أَلِيمٌ ، أَلا إِنَّ للهِ مـافي السَّماواتِ والأَرضِ قد يَعْلَمُ مـاأَنْتُم عَلَيـهِ وَيومَ يُرْجَعُونَ إِلَيْـهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَـا عَمِلُوا واللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيم ﴾[3] .

وكان زيد بن ثابت ممن ينقل التراب ، فقال ﷺ في حقّه : « أما إنه نعم الغلام » ، وغلبته عينه فنام في الخندق ، فأخـذ عمـارة بن حزم سلاحه وهو نائم ، فلما قام فزع على سلاحه ، فقال له ﷺ : « يابـار ، قـد نمت حتى ذهب سـلاحـك » ، ثم قـال : « مَنْ لـه علم بسـلاح هــذا الغلام ؟ » ، فقال عمارة : أنا يارسول الله ، وهو عندي ، فقـال ﷺ : « ردَّه عليـه » ، ونهى أن يُرَوَّع المسلم ويـؤخـذ متـاعـه لاعبـاً . وإليـه استند الأئمة في تحريم أخذ متاع الغير مع عدم علمه بذلك .

ونقل أبـو بكر وعمر رضي الله عنهما التراب في ثيـابهما ، إذا لم يجـدا مايحملان به ، وذلك للإسراع وإنجاز العمل في حينه .

---

(١) السيرة الحلبيــة : جـ ٢ ص ٣٣٣ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٦٦ . الاكتفـــاء : جـ ١ ص ١١٤ / ١ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٦ . السيرة النبوية لابن هشام : جـ ٣ ص ١٢٨ .

(٢) اللواذ : هو أن يلوذ القوم بعضهم ببعض يستتر هذا بهذا ، ص ٤٠٢ مختصر تفسير الإمام الطبري ، طبعة قطر .

(٣) النور : ٦٣ و ٦٤ .

وقال عمرو بن عوف : كنت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مُقَرِّن الْمَزَني وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً ، فحفرنا تحت ذوباب حتى بلغنا النَّدى[1] ، فأخرج الله عز وجل من بطن الخندق صخرةً بيضاء مَرْوَةً[2] فكسرت حديدَنا ، وشقَّت علينا ، فقلنا : ياسلمان ، ارقَ إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر هذه الصخرة ، فإمّا أن نعدِل عنها ، فإن المعدل قريب ، وإما أن يأمرنا فيها بأمره ، فإنا لانحب أن نجاوز خطّه .

فرقى سلمان رضي الله عنه حتى أتى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قُبّة تركية ، فقال : يارسول الله ، بأبينا أنت وأمنا ، خرجت صخرة بيضاء من الخندق مَرْوَة ، فكسرت حديدنا ، وشقَّت علينا حتى مانُحِيك[3] فيها قليلاً ولاكثيراً ، فمرنا فيها بأمرك ، فإنا لانحب أن نجاوز خطَّك ! . فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان في الخندق ، ورقينا نحن التسعة على شقّة الخندق .

وأخذ ﷺ المعول وقال : « بسم الله ، بسم الله » وضرب ضربة

---

(١) ذوباب وهي ذِباب وذُباب : جبل بالمدينة ، معجم البلدان : جـ ٤ ص ٣ ، و « حتى بلغنا النَّدى » : أي بلغنا الغاية ، لسان العرب : جـ ١٥ ص٣١٦ .

(٢) المَرْوُ : حجارة بيض براقة تكون فيها النار ، وتقدح منها ، واحدتها مَرْوَة ، مختار الصحاح : ص ٦٢٢ .

(٣) لايحيك الفأسُ ولا القَدُوم في هذه الشجرة ، إذا لم يؤثر فيها ، ويقال : ضربته فما أحاك فيه السيفُ ، إذا لم يعمل ، لسان العرب : جـ ١٠ ص ٤١٩ .

فكسر ثلث الصخرة ، وبرقت برقة فخرج نور من قبل اليمن كالمصباح في جوف ليل مظلم ، فكبَّر رسول الله ﷺ وقال : « أُعطيت مفاتيح اليمن ، إني لأُبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا ، ثم ضرب الثانية ، فقطع ثلثاً آخر ، فخرج نور من قبل الروم ، فكبَّر رسول الله ﷺ وقال : أُعطيت مفاتيح الشام والمغرب ، والله إني لأُبصر قصورها الحمر ، ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الصخرة ، وبرقت برقة ، فكبَّر وقال : أُعطيت مفاتيح فارس ، والله إني لأُبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب في مكاني هذا ، إني لأُبصر قصر المدائن الأبيض الآن ، وجعل ﷺ يصف لسلمان أماكن فارس ، ويقول سلمان : صدقت يارسول الله هذه صفتها ، أشهد أنك رسول الله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « هذه فتوح يفتحها الله بعدي ياسلمان ، أخبرني جبريل أن أُمتي ظاهرة عليها ، فأبشروا يبلغهم النصر ، فأبشروا يبلغهم النصر ، وأبشروا يبلغهم النصر » ، فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمد لله ، ووعد صادق بار ، وعدنا النصر بعد الحصر[1] .

وقال جمع من المنافقين : « ألا تعجبون من محمد يمنيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الخوف لاتستطيعون أن

---

(١) الطبري : جـ ٢ ص ٥٦٩ .

تبرزوا ، هيهات هيهات ، من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعز وأمنع من ذلك .

كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط »[1] .

لقد كان المسلمون يتابعون هذه النبوءات بدقة ، ويسألون رسول الله ﷺ عنها . فلما بشّرهم بفتح مكة وعاد إلى المدينة بعد صلح الحديبية ، قالوا : ألم تقل يارسول الله إنك تدخل مكة آمناً ؟! قال مؤكداً : بلى ، أفقلت لكم من عامي هذا ؟ قالوا : لا ، قال : فهو كما قال لي جبريل عليه السلام[2] . أي : إنه سيدخل مكة آمناً ، ولابدّ أن يكون ذلك .

كان أبو هريرة يقول حين فتحت هذه الأمصار في زمن عمر وعثمان ومابعده : افتحوا مابدا لكم ! فوالذي نفس أبي هريرة بيده مافتحتم من مدينة ولاتفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أُعطي محمد مفاتيحها قبل ذلك[3] .



(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٥ / ١ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٧٢ .

(٢) ابن هشام : جـ ٣ ص ٢١٠ .

(٣) الطبري : جـ ٢ ص ٥٧٠ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٨ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٩٦ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٢٤ .

من معجزات رسول الله في الخندق :

« من الخطأ أن نقايس بين نواميس الحوادث المادية ، وبين النواميس الروحيّة »

وكانت في حفر الخندق معجزات فيها من الله تأييدٌ وعبرة في تصديق رسوله وتحقيق نبوته ، عاين ذلك المسلمون جميعاً ، وهذه المعجزات دليل قاطع على نبوته ﷺ ، من هذه المعجزات :

١ - كان ﷺ يبشِّر المسلمين ويثبتهم ، ويقول لهم : « ابشروا بعون الله ونصره ، إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق ، وآخذ المفتاح ، وليهلكنَّ كسرى وقيصر ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، والذي نفسي بيده لَتُنْفَقَنَّ كنوزهما في سبيل الله »[١] . يقول ﷺ ذلك حين رأى مابالمسلمين من الكرب .

٢ - واشتد على الصحابة في حفر الخندق كُدْيَة[٢] ، فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ ، فأخذ المعول وضرب ، فصار كثيباً أهيل أو أهيم[٣] .

---

(١) وفي السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٢١٠ : « وعند اشتداد البلاء والكرب جعل ﷺ يبشِّرهم ويقول : « والذي نفسي بيده لَيُفْرجن عنكم ماترون من الشدة ، وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً ، وأن يدفع الله إليَّ مفاتيح الكعبة ، وليهلكنَّ الله كسرى وقيصر ولَتُنْفقن كنوزهما في سبيل الله » .

(٢) كُدْية : قطعة صلبة لايعمل فيها الفأس ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٧ .

(٣) أي رملاً مفتتاً ناعماً .

٣ ـ ومما وقع من معجزات في مدة حفر الخندق ، أن ابنة لبشير بن سعد[١] ، جاءت لأبيها وخالها عبد الله بن رواحة بجفنة من التمر ليتغذيا بها ، فقال رسول الله ﷺ : هاتيه ، فصبَّه في كفي رسول الله ﷺ فما ملأها ، ثم أمر بثوب فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه وأنه ليسقط من أطراف الثوب .

٤ ـ وعلم جابر بن عبد الله بما به رسول الله ﷺ من الجوع ، « لقد أصاب أهل الخندق مجاعة ، حتى قال بعض الصحابة : لبثنا ثلاثة أيام لانذوق زاداً »[٢] ، فاستأذن جابر رسول الله ﷺ في الانصراف إلى بيته فأذن له .

قال جابر : فجئت لامرأتي وقلت لها إني رأيت رسول الله ﷺ خمصاً[٣] شديداً ، أفعندكِ شيء ، قالت : عندي صاع من شعير وعَنَاق[٤] ، فذبحت العناق وطحنت الشعير ، وجعلت اللحم في بُرْمة[٥] ، فلما أمسينا ، جئت رسول الله ﷺ فساررته ، وقلت له :

---

(١) أُخت النعمان بن البشير . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٣٠ .

(٢) السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٥١ .

(٣) الخَمْصان والخُمْصان : الجائع الضامر البطن ، لسان العرب : جـ ٧ ص ٢٩ .

(٤) عَنَاق : الأُنثى الصغيرة من أولاد المِعْزى ، لسان العرب : جـ ١٠ ص ٢٧٥ .

(٥) البُرْمة : القِدْر مطلقاً ، وهي في الأصل المتَّخذة من الحَجر المعروف بالحجاز واليمن ، لسان العرب : جـ ١٢ ص ٤٥ .

طُعَيم لي ، فقم أنت يـارسـول الله ورجـل أو رجـلان ، فشبـك ﷺ أصـابعـه في أصـابعي ، وقـال : كم هـو ؟ فـذكرت لـه ، قـال : « كثير طيب ، لاتنزلن برمتكم ، لاتخبزن عجينكم حتى أجيء » . وصـاح ﷺ : « يـاأهل الخنـدق ، إن جـابراً قـد صنـع لكم سـؤاراً[1] ، فحيهلا بكم[2] » ، وسار رسول الله ﷺ يقدم النـاس ، قـال جـابر : فلقيت من الحياء مالا يعلمه إلا الله ، والله إنها لفضيحة ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

أقبل الناس مع رسول الله ﷺ ، وأمرهم أن ادخلوا عشرة عشرة .

وجلس رسول الله ﷺ ، فَقَدَّم إليه الطعام كله ، فسمّى الله تعـالى ثم أكل ، وتوارد الناس ، كلما فرغ قوم قـاموا وذهبوا إلى الخنـدق وجـاء آخرون ، حتى صور أهل الخندق كلهم وهم ألف . وأقسم جابر بن عبـد الله رضي الله عنه : لقد أكلوا حتى تركوه وانصرفوا وإن برمتنا لتغـط كما هي ، وإن عجيننا ليخبز كما هو[3] .

٥ ـ وأرسلت أُم عامر الأشهلية بقصعة فيهـا حَيْس[4] إلى رسول الله

(١) السُؤْر بقيـة الشيء ، وأسْأَر منـه شيئـاً : أبقى ، لسـان العرب : جـ ٤ ص ٣٣٩ . والمراد هنـا : طعام فيه مرق كثير .

(٢) أي سيروا مسرعين .

(٣) عيـون الأثر : جـ ٢ ص ٥٨ . ابن هشـام : جـ ٣ ص ١٣٠ . السيرة النبـويـة والآثـار المحمديـة : جـ ٢ ص ١٢٤ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٥١ . السيرة النبوية لابن هشام : جـ ٣ ص ١٨٧ .

(٤) الحَيْس : الخلـط ، ومنـه سمي الحَيْس وهـو الأَقِـطُ يخلـط بـالتمر والسَّمن ، لسـان العرب : جـ ٦ ص ٦١ .

ﷺ وهو في القبة عنده أم سلمة رضي الله عنها ، فأكلت أم سلمة حاجتها ، ثم خرج بالقصعة ونادى منادي رسول الله ﷺ : هلمّوا إلى عشائه ، فأكل أهل الخندق حتى نهلوا منها وهي كما هي[1] .

☆ ☆ ☆

سَلْمانُ مِنّا أهل البَيْت :

وتنافس المهاجرون والأنصار أثناء حفر الخندق في سلمان الفارسي[2] ، وسبب التنافس فيه رضي الله عنه أنه كان رجلاً قوياً ، يعمل عمل عشرة رجال في الخندق ، فكان يحفر في كل يوم خمسة أذرع في عمق أذرع[3] .

---

(١) عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٧ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٥٣ .

(٢) سلمان الفارسي ، أبو عبد الله ، ويُعْرَف بسلمان الخير ، مولى رسول الله ﷺ ، سئل عن نسبه فقال : أنا سلمان بن الإسلام :

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سِواه ... إذا افْتَخَروا بِقَيْسٍ أو تَميمِ

أصله من فارس من رامَهُرْمز أو من أصفهان ، وكان اسمه قبل الإسلام : مابه بن بوذخشان بن مورسلان بن بهبوذان بن فيروز بن سهرك ، كان مجوسياً سادن النار ، وبعد رحلة طويلة وصل الحجاز ، وأسلم ، فكان من خيار الصحابة وزهادهم وفضلائهم وذوي القرب من رسول الله ﷺ ، توفي سنة خمس وثلاثين ، أو ست وثلاثين في المدائن ـ حيث كان أميرها ـ . أُسْدُ الغابة : جـ ٢ ص ٤١٧ .

(٣) السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٤٣ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٣٤ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٦٨ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٩٧ .

فقال المهاجرون : سلمان منا .

وقالت الأنصار : سلمان منا .

فقال ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » .

لقد حسم رسول الله ﷺ الأمر ، فلم يقبل له نسباً إلى المهاجرين القرشيين ، ولا إلى الأنصار من أوس وخزرج ، فجعل نسبه إلى عقيدته ، فسلمان منا أهل البيت ، أي منا ، من المسلمين ، وكفى بذلك نسباً . وبالمقابل ، ليس كل من اتصل برسول الله ﷺ بنسب قربى شُرِّف ، وكان من (أهل البيت) ، كعمه أبي لهب : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وتَبَّ ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ ومَا كَسَبَ ، سَيَصْلَى نَاراً ذاتَ لَهَبٍ ، وَامرأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ ، في جِيدِهَا حَبْلٌ من مَسَد ﴾[1] .

يقول الشاعر محمد إقبال :

الشاعِرُ الهنديُّ يَهْمِسُ في أَدَبْ   إن لم يَسُؤْكُم يا سلاطينَ العربْ
أيُّ الشعوبِ تعلَّمت من قَبْلِكُم   سِرّاً مَلِيئاً بالطرافةِ والعَجَبْ
إنَّ التَّوَلِّي للنبيّ بَرَاءَةٌ   من عَمِّهِ الداني القريب أَبي لَهَبْ
والعالَمُ العَرَبيُّ[2] شعبٌ جاءَ من   فوقِ الأُبوَّة والبُنُوَّةِ والحَسَبْ
وَامتدَّ في مَعْنى النبيِّ مُحَمَّدٍ   لا في الحدودِ ولا الثُّغُورِ ولا النَّسَبْ

---

(١) سورة المسد ، مكيّة آياتها خمس ، نزلت بعد الفاتحة .

(٢) بعد أن أكرمه الله عز وجل برسوله ﷺ .

☆ ومما يذكر هنا أيضاً ، أن بعض السادات رأى عبد الله بن المبارك[1] في عزّة ورفعة مع جماعة فقال : انظروا إلى حال آل محمد وعزة ابن المبارك ! فقال ابن المبارك : إن سيدنا لما لم يراع سُنَّة جده ذل ، وابن المبارك لما أطاع النبي عليه السلام وسار سيرته ، أعطاه الله عزّاً وشرفاً ، واعلم أن عزَّة فرعون وشرفه انقلبا ذلاً وهواناً بسبب تكذيب موسى وإعراضه عن قبول دعوته ، وهامان وإن كان سبباً صورياً في امتناعه عن القبول ونكوله عن الانقياد ، لكن لم يكن له في أصل جبلّته[2] استعداد لقبول الحق ، فلا يغرَّنكم عزة الدنيا مع عدم الطَّاعة ، لأنَّه ينقلب يوماً ذُلاً وخسراناً ، وكثيراً ما وقع في الدنيا ورأيناه ، فاقبل النصيحة مع مداومة حب العلم ، وإلاّ فعند ظهور الحق ووجود الاستعداد والقابلية لا يبقى غير الاستسلام ، وإن منعه العالم بأسرهم عن ذلك[3] .

« سلمان منا أهل البيت » شرف عظيم لسلمان ، وبذلك يمكن لكل مسلم أن يكون شريفاً مرموقاً بغض النظر عن نسبه وقومه ، قال

---

(١) عبد الله بن المبارك : ١١٨ ـ ١٨١ هـ ، عاش حتى أيام الرشيد ، عالم المشرق والمغرب لما جمع في أعماله من فهم رائع سليم للشريعة .

(٢) جبلّته : جَبَله على الشيء : طبعه ، وجُبِل الإنسانُ على هذا الأمر ، أي طُبِعَ عليه ، وجبلّة الشيء طبيعته وأصله وما بُني عليه ، لسان العرب : جـ ١١ ص ٩٨ .

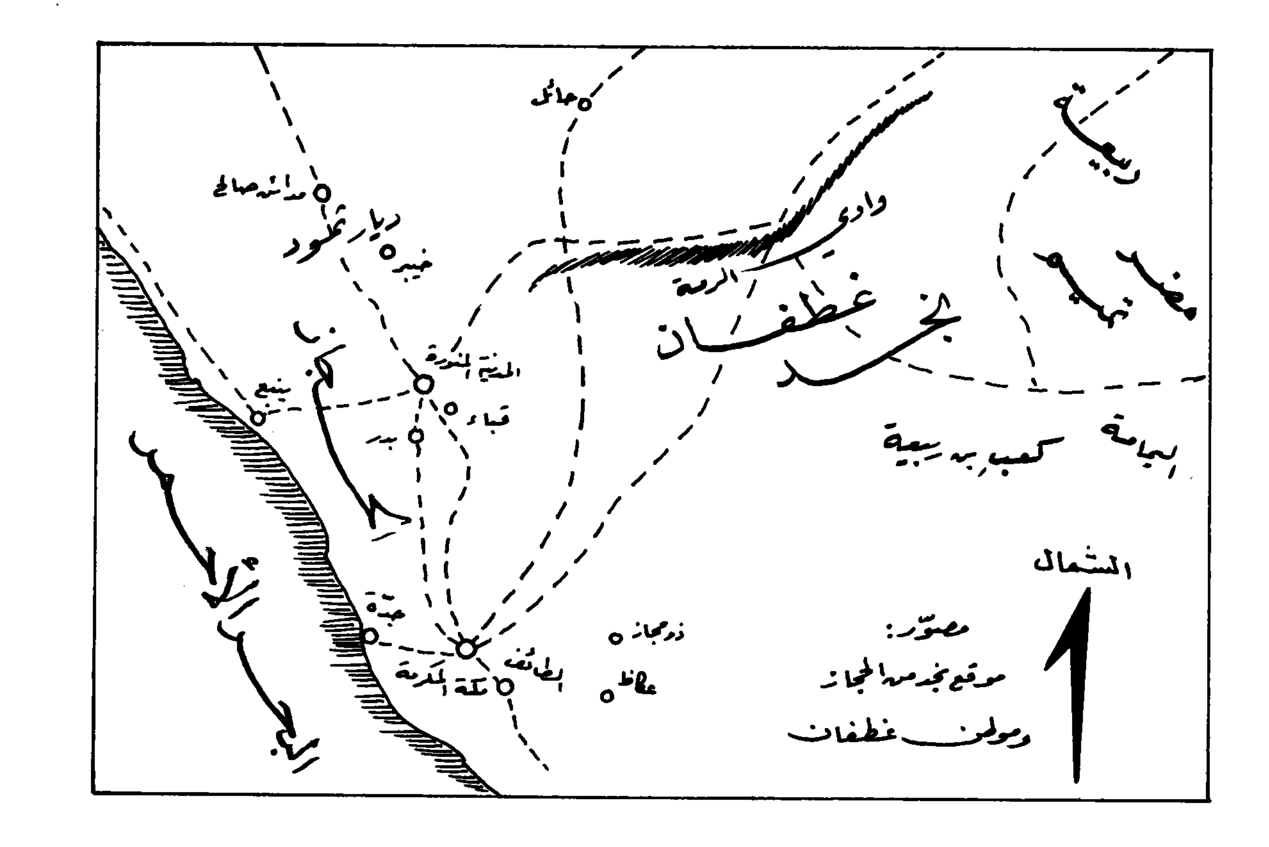
(٣) روح البيان : جـ ٥ ص ٣٩٣ ، ط : ١٣٣١ هـ .

ﷺ : « أَشرافُ أُمتي حَمَلَةَ القرآن وأَصحابُ الليل »[1] ، حملة القرآن علماً وتطبيقاً وسلوكاً ، وأصحاب الليل هم عشاق الله عز وجل ، تجافت جنوبهم عن المضاجع ، فقاموا لمناجاة ربِّهم وذكره ، فهم أهل القرب والمحبَّة .

☆ ☆ ☆

---

(١) رواه الطبراني عن ابن عباس ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وفي سند الحديث ضعف ، راجع فيض القدير للمناوي : جـ ١ ص ٥٢٢ .



حائل
مدائن صالح
ديار ثمود
خيبر
الحجاز
المدينة المنورة
ينبع
قباء
بدر
البحر الأحمر
جدة
مكة المكرمة
الطائف
ذو مجاز
عكاظ
نجد
غطفان
وادي
الرمة
ربيعة
مضر
تميم
اليمامة
كعب بن ربيعة
الشمال
مصوّر:
موقع نجد من الحجاز
وموطن غطفان

إتمام الخندق

كم عدد المسلمين الذين اشتركوا في حفر الخندق ؟ .

وبكم من الأيام أُنجز وتمّ حفره ؟ .

تكاد المصادر تجمع على أن عدد المسلمين في الخندق ثلاثة آلاف[1] .

وهذا الرقم موضع تساؤل : كان المسلمون في أُحد قرابة أَلف رجل حملوا السلاح ، أفمن المعقول أنهم ازدادوا ثلاثة أضعاف في مدَّة قصيرة ؟ .

يمكننا أن نجد الإجابة في جملة وردت في السيرة الحلبية ، وهي أن الذين عملوا في الخندق ليس الرجال فقط : « وكانوا بأجمعهم من بلغ ومن لم يبلغ يعملون فيه »[2] . بهذه العبارة يمكننا تثبيت عدد المسلمين

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٤ / ب . ابن خلدون : جـ ٢ ص ٢٩ . البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٠٢ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٩٧ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٣١ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٣٥ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٧٠ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٧ .

(٢) السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٣٥ .

الذين عملوا في الخندق ثلاثة آلاف[1] .

وتجمع المصادر أن كل عشرة من المسلمين عملوا في حفر أربعين ذراعاً ، فكان نصيب الفرد الواحد وسطياً أربعة أذرع .

٣٠٠٠ رجل ، نصيب الواحد منهم ٤ أذرع ، فيكون طول الخندق : ٣٠٠٠ × ٤ = ١٢٠٠٠ ذراع .

وقدّر عرض الخندق بتسعة أذرع إلى ما فوقها ، وليكن وسطياً : ١٠ أذرع . وعمقه ٧ أذرع إلى عشرة .

والذراع هنا هو الذراع الشرعي ، لقد أجمعت أقوال الفقهاء على أن طول الذراع ستة قبضات معتدلات ، كل قبضة أربعة أصابع وكل إصبع بعرض ست حبات من الشعير ، وكل شعيرة بعرض ست شعرات من شعر البغل ، وطول الذراع فقهاً : ٤٦,٢ سم ، أو : ٠,٤٦٢ م[2] .

---

(١) ولكن رسول الله ﷺ استعرض عند وصول الأحزاب المجاهدين كلهم ، وردَّ من كان دون الرابعة عشرة من عمره ، وبذلك ينخفض عدد الجيش إلى ألف رجل ، يزيدون أو ينقصون قليلاً ، فليس من المعقول أن يزداد عدد المسلمين من أُحد إلى الخندق ثلاثة أضعاف ، وأشار ابن خلدون إلى ذلك : « وخرج عليه السلام في ثلاثة آلاف من المسلمين ، وقيل في تسعمائة فقط » ، جـ ٢ ص ٢٩ .

(٢) راجع كتاب الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان ، لأبي العباس نجم الدين بن الرّفعة الأنصاري ، تحقيق د . محمد أحمد إسماعيل الخروف ، طبعة : ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م . جامعة الملك عبد العزيز في مكة المكرمة .

لنحول المقاييس السابقة إلى أمتار :

١٢٠٠٠ ذراع × ٠,٤٦٢ = ٥٥٤٤ م طول الخندق .

١٠ ذراع × ٠,٤٦٢ = ٤,٦٢ م متوسط عرضه .

٧ ذراع × ٠,٤٦٢ = ٣,٢٣٤ م متوسط عمقه .

والطول المطلوب من كل فرد إنجازه :

٤ أذرع × ٠,٤٦٢ = ١,٨٤٨ م .

أما حجم العمل المطلوب من كل فرد فهو :

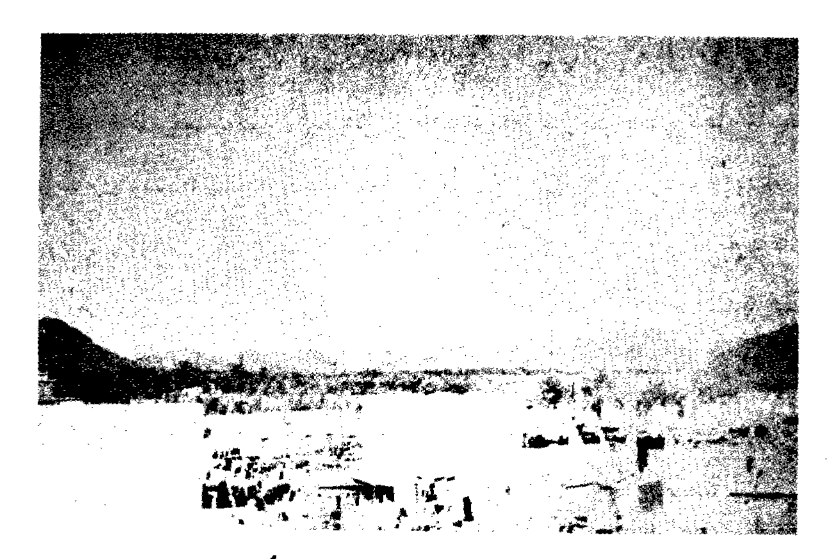
١,٨٤٨ × ٤,٦٢ × ٣,٢٣٤ = ٢٧,٦١١١١٥ م^{٣} .

ويمكن للعامل النشيط في أيامنا هذه أن ينجز ثلاثة أمتار مكعبة من الحفر ، ويمكننا القول : إن هذا الرقم (٣ م^{٣}) مقبول أيضاً للعاملين بالخندق ، على الرغم من أن أجسامهم كانت أقوى ، ولكن بما أن الذين عملوا (من بلغ ومن لم يبلغ) يمكن وسطياً قبول ثلاثة أمتار مكعبة كمية العمل اليومية .

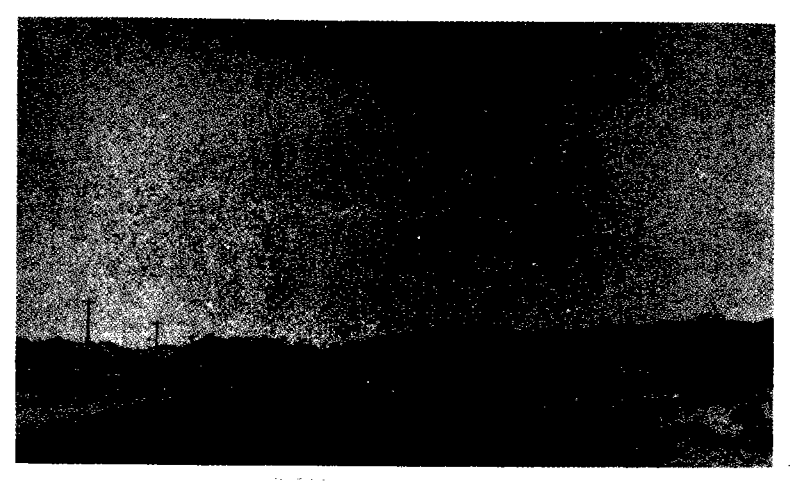
كمية العمل : ٢٧,٦١١١١٥ م^{٣} ، والإنجاز اليومي ٣ م^{٣} ، ومن هذين الرقمين يمكننا معرفة عدد أيام العمل :

٢٧,٦١١١١٥ ÷ ٣ = ٩,٢٠٣٧٠٥ أيام ، أي ما بين ٩ إلى ١٠ أيـام .
والمدة الطبيعية لوصول المسافر من نجد إلى الحجاز هي على الأقل ثمانيـة أيـام ، ولمـا كان الخبر وصـل إلى رسـول الله ﷺ بعـد أربعـة أيـام : (أرسلت خزاعة بموكب قطع الطريق بين مكة والمدينـة في أربع ليـال بـالخبر إلى رسـول الله ﷺ) ، يضـاف إليهـا عشرة أيـام مـدة حفر الخنـدق ، نقول على ضوء هـذا : لم تصل الأحزاب إلى المـدينـة إلا بعـد مرور أكثر من أربعـة عشر يومـاً ، وهي المـدة المعقـولـة لـذهـاب وفـد اليهود من مكة إلى غطفان في نجـد ، وسير غطفـان إلى المـدينـة لتلتقي بقريش .





منظر عام مأخوذ من جبل سلع يوضح في الأفق جبل أُحد ، وفي الوسط أرض الخندق وفي المقدمة مقر القيادات



يمين الصورة الحرة الشمالية ، وفي هذا الموقع وسط الصورة كان الخندق

الأحزابُ في المدينةِ المنوّرة

☆ « اللّهم منزل الكتـــاب ،
سريع الحساب ، اهزم الأحزاب » .
رسول الله ﷺ

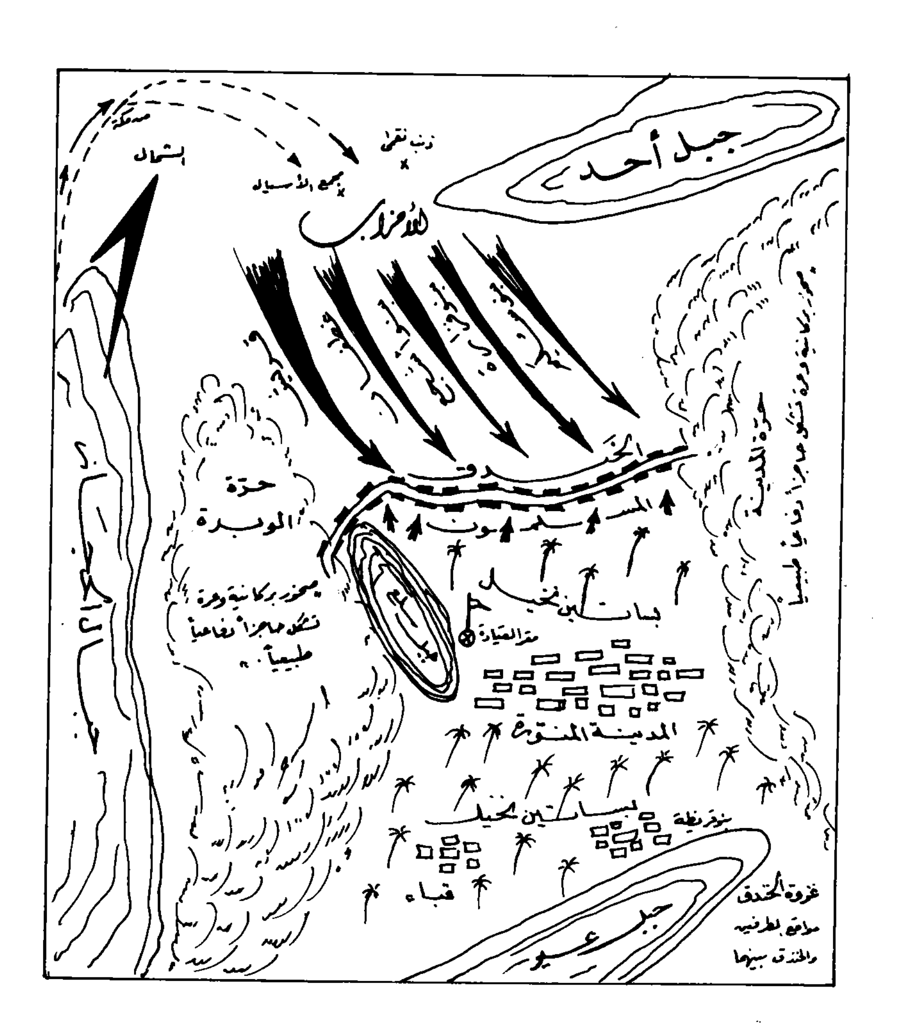
ولمـا فرغ رسـول الله ﷺ من حفر الخنــدق ، أقبلت قريش ومن معها ، فنزلت قريش بمجمع الأسيال من رومة بين الجُرُف وزغـابـة[١] ، ونزلت غطفان ومن معها من أهل نجد إلى جانب أُحُد بذَنب نَقَمى[٢] .

وعسكر رسول الله ﷺ بـالمسلمين في سفح جبـل سَلْـع[٣] ، فجعـل بـذلـك ظهر عسكره إلى سلع ، والخنـدق بينـه وبين الأحزاب ، وجعل النساء والذراري[٤] في الآطام[٥] .

واستعرض ﷺ الغلمـان ، وكانوا بـأجمعهم - من بلغ ومنَ لم يبلغ - يعملون في الخندق ، فلمـا قرب اللقـاء ، وحـان الأمر ، أمر من لم يبلغ

---

(١) زغابة : بالزاي المفتوحة ، وذكره البكري بضم الزاي ، وفي الطبري : (الغابة) .
(٢) ذنب نَقَمَى : موضع من أعراض المدينة ، (معجم البلدان : جـ ٥ ص ٣٠٠) . راجع : الطبري : جـ ٢ ص ٥٧٠ . الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٤ / ب . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٣١ .
(٣) سَلْع ، السُّلوع : شقوق في الجبـال واحـدهـا سَلْع وسِلْـع ، وقيـل الأسـلاع طُرُق في الجبـال يسمّى الواحد منها سَلْعاً ، وسَلْع جبل بسوق المدينة ، معجم البلدان : جـ ٣ ص ٢٣٦ .
(٤) ذُرِّيَّة الرجل : وَلَدُهُ ، والجمع الذَّراري والذُّرِّيَّات ، لسان العرب : جـ ٤ ص ٣٠٤ .
(٥) آطام وأُطُم : حصن مبني بحجارة ، لسان العرب : جـ ١٢ ص ١٨ .


جبل أحد
الشمال
ذنب نقمى
مجمع الأسيال
الأحزاب
الخندق
المسلمون
حرة الوبرة
صخور بركانية وعرة تشكل حاجزاً دفاعياً طبيعياً
سلع
مقر القيادة
بساتين نخيل
المدينة المنورة
بنو قريظة
بساتين نخيل
قباء
جبل عير
غزوة الخندق
مواقع الطرفين
والخندق بينهما

خمس عشرة سنة أن يرجع إلى أهله ، وأجاز من بلغ خمس عشرة سنة ، فممّن أجازهم ﷺ : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، وأبو سعيد الخدري ، والبراء بن عازب .

لقد حصّن رسول الله ﷺ المدينة أحسن تحصين ، فأضحت منيعة من سائر جوانبها ، واستكمل الخندق إحكام التحصين .

وأعطى ﷺ لواء المهاجرين لزيد بن حارثة ، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة[1] . وبعث مسلمة بن أسلم في مائتي رجل ، وزيد بن حارثة في ثلثمائة رجل يحرسون المدينة ، ويظهرون التكبير تخوُّفاً على الذراري من غدر بني قريظة ، فالدلائل تشير إلى قرب نقضهم العهد الذي بينهم وبين المسلمين ، وأنهم يريدون الإغارة على المدينة بتحريض من حيي بن أخطب . فَعَظُمَ البلاء ، وصار الخوف على الذراري أشد الخوف .



بَدْءُ الاشتباكات :

وأرسل ﷺ سليطاً وسفيان بن عوف طليعة للأحزاب

---

(١) السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٣٥ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٨ .

واستطلاعاً لأحوالهم ، فقتلوهما ، فأتى بهما رسول الله ﷺ فدفنهما معاً في قبر واحد ، فهما الشهيدان القرينان .

ولما نظر المشركون إلى الخندق قالوا : والله إن هذه لمكيدة ، وما كانت العرب تكيدها .

وصار المشركون يتناوبون ، فيغدو أبو سفيان في أصحابه يوماً ، ويغدو خالد بن الوليد يوماً ، ويغدو عمرو بن العاص يوماً ، ويغدو هبيرة بن أبي وهب يوماً ، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوماً ، ويغدو ضرار بن الخطاب يوماً .. فلا يزالون يجيلون خيلهم ويفترقون مرّة ، ويجتمعون أُخرى ، ويناوشون أصحاب رسول الله ﷺ ، ويقتربون منهم ، ويقدِّمون منهم رجالهم فيرمون . ولم يكن بينهم حرب إلاّ الرمي بالنبل والحجارة .

وأقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له ليوثبه الخندق ، فوقع في الخندق حيث اندقت عنقه ، وتحطَّم مع فرسه ، وقيل رُمِيَ بالحجارة وضربه علي رضي الله عنه بالسيف فقطعه نصفين ، وكَبُر ذلك على المشركين ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ : إنا نعطيك الدية على أن تدفعه إلينا فندفنه ، فردّ عليهم رسول الله ﷺ بأنه خبيث الدية فلعنه الله ولعن ديته ، ولا نمنعكم أن تدفنوه ، ولا أرب لنا في ديته[١] .

---

(١) السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٣٦ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٠٦ .



سفح جبل سلع ، وفي الأُفق جبل أُحد



سفح جبل سلع

وفي رواية : قالت قريش : أرسل إلينا بجسده ونعطيك اثني عشر ألفاً ، فقال رسول الله ﷺ : « لا خير في جثّته ولا في ثمنه ، ادفعوه إليهم فإنه خبيث الجسد خبيث الدية » .

خطأ الفهم وخطأ المقارنة :

يقول كلود كاهن[1] : « وكان يتوجّب على محمد - ﷺ - أن يؤمن أيضاً لطائفة المسلمين وجودها المادي ، وأن يجعلها متلاحمة في ميادين القتال ، وأن يصد غارات قريش التي أقلقها نشوء جماعة إسلامية معادية لها في المدينة ، إلى أن تحين الساعة التي تدخل فيها قريش في الدولة الجديدة ، أما أخبار (المغازي) التي يطيب للرواة أن ينقلوها لنا في كل تفاصيلها ، فهي في بعض مظاهرها استمرار للغزوات القديمة التي اعتادت القبائل أن تشنها على بعضها » .

خطأ في الفهم ، وخطأ في المقارنة .

أولاً : ما اجتمع العرب قبل الإسلام كاجتماعهم هذا ، الذي كان هدفه : « إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله » .

ثانياً : هدف غزوات العرب قبل الإسلام ، الغزو للغزو ليس غير .. مال ، سبي ، غنائم ، فروسية ...

---

(١) في كتابه : (تاريخ العرب والشعوب الإسلامية) ، ص ١٣ ، نشر دار الحقيقة ، ط ٢ .

واليوم ، استئصال الدين الجديد ، هـدف ديني سيـاسي ، وبسبب طريق تجارة قريش المار من المدينـة يُضَاف هـدفٌ اقتصـاديٌّ أيضـاً . فقـوبلت الأحـزاب بخطـط محكمـة مـدروسـة ، وبمفـاجـأة أذهلتهم ، ما عهدوها قبلاً في جاهليتهم .

ووجدت الأحزاب تماسكاً بين المسلمين وقيـادتهم ، ورأت السيطرة التامة للقيادة على الأحداث منذ اللحظة الأُولى ، فمنذ الساعـات الأُولى لحفر الخنـدق ، لا مغـادرة إلاّ بـإذن مسبق ، فحقق النبي ﷺ التلاحم المطلوب للـوقـوف في وجـه عشرة آلاف مشرك ومن وراءهم من اليهـود ومكائدهم .

فالأمر تبدل ، والأهداف تغيَّرت ، وبـالتـالي ستكون النتـائج أعم وأشمل على مرّ الزمن ، وأهمّ وأبرز في مسيرة التاريخ .

☆ ☆ ☆

بَنُو قُرَيْظَةَ تَنْقُضُ العَهْدَ :

وكان حُيَيٌّ بن أخطب سيـد بني النضير يقـول لقريش في مسيرهم وهو معهم : إن قـومي بني قريظـة[1] معكم ، وهم أهـل حلقـة وافرة[2] ،

(١) حُيَيّ من بني النضير ، وقوله : إن قومي بني قريظة معكم ، أي قومه من اليهود ، وكان حُيَيّ في اليهود يشبَّه بأبي جهل في قريش .

(٢) حلقة وافرة : سلاح وافر .

وهم سبعمائة مقاتل وخمسون مقاتلاً ، فقال له أبو سفيان : ائت قومك حتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد . فعند ذلك ، خرج حُيَيٌّ حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة ، وولي عهدهم الذي عاهدهم عليه رسول الله ﷺ ، فدقَّ عليه باب حصنه ، فأبى أن يفتح له ، وألحَّ عليه في ذلك ، فقال له : ويحك يا حُيَيّ إنك امرؤ مشؤوم ، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أَرَ منه إلاّ وفاءً وصدقاً .

حُيَيّ : ويحك ، افتح لي أُكلمك .

كعب : ما أنا بفاعل .

حُيَيّ - في غيظ - : والله ما أغلقت دوني إلا تَخَوُّفاً على جشيشتك[1] أن آكل منها . ففتح له ، فقال : ويحك يا كعب ، جئت بعز الدهر ، جئتك بقريش حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال ، وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أُحد ، قد عاهدوني وعاقدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه .

---

(١) الجشيشة : جش الحَبَّ يَجُشُّه جشاً ، وأَجَشّه : دقَّه ، وقيل طحنه طحناً غليظاً جريشاً ، وهو جَشِيش ومَجْشوش ، وقيل الجشيش الحَبّ حين يدق قبل أن يطبخ ، فإذا طُبِخَ فهو جشيشة ، وفي رأي : الجشيش أن تطحن الحنطة طحناً جليلاً ثم تُنْصَبُ به القِدْر ، ويلقى عليها لحم أو تمر ينطبخ ، فهذا الجشيش ، ويقال لها : دشيشة (بالدال) ، لسان العرب : جـ ٦ ص ٢٧٣ .

فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر وكل ما يخشى ، فـإني لم أرَ في محمد إلاّ صدقاً ووفاء ، يا حيي جئتني بِجَهَام[1] قـد هراق مـاءه ، فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء ، ويحك يا حيي دعني وما أنـا عليـه ، فلم يزل حُيَي بكعب حتى أعطاه عهداً من الله وميثـاقـاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يقتلوا محمداً أن يكون معه في حصنه ويصيبه مـا أصـابـه ، فعند ذلك نقض كعب العهـد وبرئ ممـا كان بينـه وبين رسول الله ﷺ ومزّق الصحيفة التي كان فيها العقد ، وجمع كعب رؤساء قومه ، منهم : الزبير بن مطاوشاس بن قيس ، وغزال بن ميمون ، وعقبـة بن زيـد ، وأعلمهم بما صنع من نقض العهد وتمزيق الكتاب الـذي كتبـه مع رسول الله[2] .

وبنقض بني قريظـة لعهودهم مع رسول الله ﷺ ، أصبح المسلمـون غير مطمئنين على مصير ذراريهم وأولادهم الـذين في مـؤخرة الجيش في الحصون والآطام .

وعقاب وتأديب بني قريظة أمر أصبح في الحسبان ، مع أن رسول

---

(١) جَهام : السحاب الذي لا ماء فيه ، وقيل الذي قد هَراق ماءَه مع الريح ، لسان العرب : جـ ١٢ ص ١١١ .

(٢) السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٣٦ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٣١ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٧١ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٩ . الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٤ / ب . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٢٥ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ١٩٨ . ابن خلدون : جـ ٢ ص ٨ .

الله ﷺ ، ليس عاجزاً عن الصفح ، ولكن استحق بنو قريظة بجدارة عقاباً مناسباً ، لنقضهم العهد وتمزيقهم الصحيفة والنبي والمسلمون في أشد الساعات حرجاً .

لقد كان حُيَيّ بن أخطب يمثّل الحقد الذي اشتعل في قلوب اليهود ووجّه سياستهم ، لعلهم اعتقدوا أنهم يملكون الحقيقة المطلقة فصاروا لا يطيقون التسامح مع من لم يكن على دينهم ، ومالوا إلى إبقاء سيطرتهم على المجتمع العربي تحقيقاً لمصالحهم المادية والسياسية ، فمالوا إلى إلزام الناس بهذه الزعامة ، ولم يتأخروا عن الغدر والقتل والخيانة إذا قدروا عليه .

وبعد الخندق سنرى أن آمالهم ضاعت في أمانيهم .



رسولُ اللهِ ﷺ يَتَثَبَّتُ أَمْرَ بني قُرَيْظَة :

انتهى الخبر بنقض بني قريظة لعهودهم إلى رسول الله ﷺ ، أخبره بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله بلغني أن بني قريظة قد نقضت العهد وحاربت . فاشتد الأمر على رسول الله ﷺ وشقّ عليه ذلك ، وأرسل سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، وأرسل معهما عبد الله بن رواحة ، وخَوَّات بن

جبير ، وقـال ﷺ لهم : « انطلقـوا حتى تنظروا أحـق مـا بلغنـا عن هؤلاء القوم ، فـإن كان حقـاً فـألحنوا إليَّ لحنـاً أعرفـه دون القوم[1] » ، والهـدف من ذلـك ، كيـلا يحصـل للمسلمين الـوهن والضعف ، « وإلا فاجهروا بذلك بين الناس » .

فخرج القوم حتى أتوا بني قريظـة فـوجـدوهم قـد نقضـوا العهـد ، ونالوا من رسول الله ﷺ وتبرَّؤوا من عقده وعهـده ، وقـالوا : لا عهـد ولا عقد بيننا وبين محمد ، وقالوا : مَنْ رسول الله ؟!!

فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه[2] ـ وكان رجلاً فيـه حِـدَّة ـ فقـال سعـد بن معـاذ : دع عنـك مشـاتمتهم ، فمـا بيننـا وبينهم أربى من المشـاتمـة[3] . ثم أقبل سعـد بن عبـادة ، وسعـد بن معـاذ ومن معهما إلى رسول الله ﷺ ، فكنُّوا له عن نقضهم العهـد ، قـالوا : عضل والقـارة ، أي غدروا كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ، خُبَيب وأصحابه .

---

(١) أي ورُّوا وكنُّوا في كلامكم بما لا يفهمـه القوم ، فـإن اللحن العـدول بـالكلام عن الوجـه المعروف عنـد النـاس إلى وجـه لا يعرفـه إلا صـاحبـه ، كما أن اللحن الـذي هو الخطـأ عـدول عن الصواب المعروف عند النـاس إلى وجـه لا يعرفـه إلا صـاحبـه ، كما أن اللحن الـذي هو الخطـأ عـدول عن الصواب المعروف ، ومنه قول القائل : « وخير الحديث ما كان لحناً » .

(٢) وفي بعض الروايـات ، العكس ، أن الـذي شـاتمهم سعـد بن معـاذ ، الاكتفـاء : جـ ١ ص ١١٤ / ب . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٩ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٣٧ .

(٣) أربى : أي أقوى .

فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين نصرة الله تعالى وعونه » ، ثم تقنَّع ﷺ بثوبه ، واضطجع ومكث طويلاً ، فاشتد على الناس البلاء والخوف حين رأوه ﷺ اضطجع ، ثم رفع رأسه ، فقال : « أبشروا بفتح الله ونصره »[1] .

ولعل إرسال السَّعْدين ومن معهما كان بعد إرساله ﷺ الزبير بن العوام إليهم ليأتي بخبرهم ، هل نقضوا العهد ، استوثاقاً للأمر .

فعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال : كنت يوم الأحزاب أنا وعمر بن أبي سلمة مع النساء في أُطم حسَّان بن ثابت ، وكان حسَّان مع النساء ومنهن صفيَّة بنت عبد المطلب ، واتَّفق أن يهودياً جعل يطوف بذلك الحصن ، فقالت صفية لحسَّان : يا حسَّان لا آمن هذا اليهودي أن يدلَّهم على عورة الحصن فيأتون إلينا ، فانزل فاقتله .

قال حسَّان : يا بنت عبد المطلب ، قد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا .

قالت صفية : فلما أيست منه أخذت عموداً ونزلت ففتحت باب

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٥ / ١ . ابن خلدون : جـ ٢ ص ٣٠ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٣٨ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٣٢ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٥٩ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٢٧ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٠٠ .

الحصن وأتيته من خلفه فضربته بالعمود حتى قتلته[1] ، وصعدت الحصن فقلت : يا حسَّان انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلاّ أنه رجل . فقال : يا ابنة عبد المطلب ما لي بسلبه حاجة[2] .

قيل إن حسَّاناً كان جباناً شديد الجبن ، ورد هذا القول بعض العلماء وأنكره ، وذلك لو صحَّ هذا لَهُجِي به حسَّان ، فإنه كان يهاجي الشعراء وكانوا يردّون عليه ، فما عيَّره أحد منهم بجبن ، ولا وسمه به ، فالأرجح كان حسَّان معتلاً في ذلك اليوم بعلة منعته من شهود القتال ، وخاصة وأنه طاعن متقدم بالسن .

وحادثة هذا الجاسوس ، محاولة من اليهود لإشغال المسلمين بعمل حربي في مؤخرة جيشهم ، فأرسلوا هذا الجاسوس بمهمة استطلاعية إلى الآطام التي حلَّت بها النساء المسلمات وأولادهن ، وأيقنت بنو قريظة عندما لم يرجع إليهم أنه قُتِل ، وأن المسلمين قد خصَّصوا جزءاً من قواتهم لحماية الظعن والمؤخرة ، لذلك عدلوا عن القيام بأي عمل حربي في

---

(١) الجاسوس يُقتل ، جاء في البخاري وغيره عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال : جاء عين من المشركين إلى رسول الله ﷺ ، فأمر بقتله فابتدره القوم ، قال : وكان أبي يسبق الفرس فسبق إليه وهو هارب ، فأخذ بخطام راحلته فقتله . راجع : أقضية رسول الله ﷺ لأبي عبد الله محمد بن فرج المالكي القرطبي ، ص ٣٤ .

(٢) الروض الأُنف : جـ ٣ ص ٢٧١ .

مؤخرة الجيش الإسلامي ، وقبعوا في حصونهم لا يفكّرون بالخروج خوفاً ورعباً وتحسُّباً .

وقال عبد الله بن الزبير : فنظرت فإذا الزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثاً ، فلما رجعت قلت : يا أبت رأيتك تختلف إلى بني قريظة ! قال : رأيتني يا بني ؟ قلت : نعم ، قال : كان رسول الله ﷺ قال : من يأتي بني قريظة فيأتيني بخبرهم ؟ فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ أبويه ، فقال : فداك أبي وأمي .

☆ ☆ ☆

زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر :

ولما جاء العدو إلى المدينة : ﴿ إذْ جاؤوكُم من فَوْقِكم ومن أَسْفَلَ منكُم وَإذ زاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونا ، هُنَالِكَ ابتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلزِلُوا زِلزالاً شديداً ﴾[1] .

وظهر نفاق المنافقين ، حتى قالوا : « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، ماوعدنا الله ورسوله إلا غروراً » : ﴿ وَإذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ

---

(١) الأحزاب : ١٠ و ١١ .

وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ ماوَعَدَنا اللهُ وَرَسُولُهُ إلاَّ غُرُوراً ، وَإذ قالَت طائِفَةٌ مِنْهُم يـاأَهْلَ يَثْرِبَ لامُقَامَ لَكُم فـارجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إن يُرِيدونَ إلاَّ فِراراً ﴾[1] .

في هذه الظروف الحرجة ..

قريش وغطفان ومن معها يحاصرون المدينة .

اليهود من بني قريظة ينقضون العهد مع رسول الله ﷺ .

المنافقون في الصف الداخلي يبثون نفاقهم وإرجافهم وتوهينهم للعزائم وإضعافهم للهمم .

أمام هذا الواقع ، عَظُمَ البلاءُ على المسلمين ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن الفزاري ، وإلى الحارث بن عوف المري - وهما قائدا غطفان - في أن يقطعهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه ، فجاءا مستخفِيَيْن من أبي سفيان ، فوافقا على ذلك بعد أن طلبا النصف ، فأبى عليهما إلا الثلث فرضيا ، وكتبا بذلك صحيفة كتبها عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، فلما أراد رسول الله ﷺ مهر الصلح ، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر لهما ذلك ،

(١) الأحزاب : ١٢ و ١٣ .

واستشارهما فيه ، فقالا : يارسول الله ، أمر تحبُّه فتصنعه ، أَمْ شيءٌ أمرك الله به لابد لنا من العمل به ؟ أَمْ شيء تصنعه لنا ؟ إن كان أمراً من السماء فامضِ له ، وإن كان أمراً لم تؤمر به ولك فيه هوى ، فسمعاً وطاعة ، وإن كان إنما هو الرأي فمالهم عندنا إلاَّ السيف . فقال رسول الله ﷺ : « لو أمرني الله ماشاورتكما ، والله ماأصنع ذلك إلاّ لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم[1] من كل جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما » .

فقال سعد بن معاذ : يارسول الله ، كنا نحن وهؤلاء القوم ـ أي غطفان ـ على الشرك بالله وعبادة الأوثان لانعبد الله ولانعرفه ، وهم لايطمعون أن يأكلوا منا تمرة إلا قِرَى[2] أو بيعاً ، وكانوا ليأكلون العِلْهِز[3] في الجاهلية من الجهد ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نقطعهم أموالنا ، ونعطي الدَّنِيَّة ؟ مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلاّ السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « فأنت وذاك » ، فأخذ سعد بن معاذ الصحيفة

---

(١) كَالَبَ الرجلُ مكالَبَةً وكِلاباً : ضايقه ، ويقال : هم يتكالبون على كذا ، أي يتواثبون عليه ، لسان العرب : جـ ١ ص ٧٢٤ .

(٢) قَرَى الضَّيف يَقْريه قِرىً وقَراءً : أضافه . لسان العرب : جـ ١٥ ص ١٧٨ . ومختار الصحاح ص ٥٣٣ .

(٣) العِلْهِزُ : وَبَرٌ يُخْلَطُ بدماء يابسة ، كانت العرب في الجاهلية تأكله في الجَدْب ، لسان العرب : جـ ٥ ص ٣٨١ .

فمحى مافيها من الكتابة ، وأمر ﷺ بتمزيق الكتاب ، فمزّقه سعد وقال : ليجهدوا علينا . وقال ﷺ رافعاً صوته لعيينة والحارث : « ارجعا ، بيننا وبينكم السيف »[1] .

وهذا يوضّح ماللإيمان من سلطان على النفوس ، وماله من عزّة وقوّة في المواقف الحاسمة . فموقف سعد يدل على اليقين التام بالله ، والثقة الكاملة به ، مع التصديق التام الكامل بنبوّة محمد بن عبد الله ﷺ .

☆ ☆ ☆

عَلِيّ وعمرو بن عبد وُدّ :

ثم إن طائفة من المشركين أقبلوا وأكرهوا خيولهم على اقتحام الخندق من مضيق به ، فيهم : عكرمة بن أبي جهل ، وهبيرة بن أبي وهب ، وضرار بن الخطاب ، وعمرو بن عبد وُدٍّ بن أبي قيس العامري[2] ، ونوفل بن عبد الله .

---

(١) السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٣٩ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٠١ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٣٣ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٦٠ . الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٥ / ١ . الروض الأُنُف : جـ ٣ ص ٢٧٨ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٧٣ . ابن خلدون : جـ ٢ ص ٣٠ . البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٠٤ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٢٨ و ١٢٩ .

(٢) قال الفرسان هؤلاء كما ذكر ابن إسحاق لما مرّوا بمنازل بني كِنانة : تهيَّأوا يابني كنانة للحرب ، فستعلمون من الفرسان اليوم ! ثم أقبلوا تَعْنِقُ - تسرع - بهم خيلهم ، حتى وقفوا على الخندق ، ابن هشام : جـ ٣ ص ١٣٤ .

فقال عمرو بن عبد وُد : من يبارز ؟ .

علي رضي الله عنه : أنا له يانبي الله .

رسول الله ﷺ : اجلس ، إنه عمرو بن عبد وُد .

وكرر عمرو النداء ، وقال مستهزئاً : جنتكم التي تزعمون أنه من قُتِل منكم دخلها ، أفلا تُبْرِزُون لي رجلاً ، وأنشد قائلاً :

ولقد بُحِحتُ من النداءِ لِجَمْعِهِم هَلْ مِن مُبَارِزْ ؟
ووقفتُ إذ جَبُنَ المشجَّعُ موقفَ القِرنِ المُنَاجِزْ
ولذاكَ إني لم أَزَلْ مُتَسَرِّعاً قَبْلَ الهَزَاهِزْ[1]
إنَّ الشجاعةَ في الفتى والجودَ من خَيْرِ الغرائزْ

فقام علي رضي الله فقال : أنا له يارسول الله .

رسول الله ﷺ : إنه عمرو .

علي رضي الله عنه : وإن كان عَمْراً !؟ .

فأذنَ له رسول الله ﷺ بعد أن تأكد من عزيمته في مواجهة هذا الخصم المعروف ببأسه ، وأعطاه ﷺ سيفه ذا الفقار ، وألبسه درعه الحديد ، وعمَّمه بعمامته ، وقال : « اللهم أعنه عليه ، إلهي أخذت

---

(١) الهَزَاهِزُ : الدواهي والشدائد ، والهَزْهَزة : تحريك البلايا والحروب للناس ، والهَزاهِز : الفتن يهتز فيها الناس ، لسان العرب : جـ ٥ ص ٤٢٣ .

عبيدة مني يوم بدر ، وحمزة يوم أُحد ، وهذا أخي وابن عمي فلا تـذرني فرداً وأنت خير الوارثين »[1] .

فتقدَّم عليّ رضي الله عنه وهو ينشد باعتزاز ويقين :

لاتَعْجَلَنَّ فَقَد أَتـاكَ مُجِيبُ صَـوْتِـكَ[2] غَيْرُ عَـاجِـزْ
في نِيَّــةٍ[3] وَبَصِيرَةٍ والصِّـــدقُ مَنجَى كُـلِّ فَــائِـزْ
إنّي لأرجــو أَنْ أُقيمَ عَلَيْـــكَ نــائِحَـــةَ الجَنَــائِــزْ
مِنْ ضَرْبَــةٍ نَجْـلاءَ يَبْقَى ذِكْرُهــا عِنْــدَ الهَـزَاهِــزْ[4]

عمرو : مَنْ أنت ؟ ـ لأن علياً رضي الله عنه كان مقنَّعاً بالحديد ـ .

علي : أنا علي بن أبي طالب .

عمرو : غيرك يابن أخي من أعمامك من هو أشد منك .

علي : ياعمرو ! إنك كنت قد عاهدت الله لايدعوك رجل من

---

(١) السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٣٠ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٣٤ .

(٢) في السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٤٠ : مجيب قولك .

(٣) في السيرة الحلبية ، وعيون الأثر : جـ ٢ ص ٦٢ : ذو نيَّة .

(٤) للقصيدتين وخبر قتل عمرو راجع : الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٥ / ب . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٠٤ ، الروض الأُنُف : جـ ٣ ص ٢٧٩ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٤٠ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٢٤ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٦٢ ، ابن هشام : جـ ٢ ص ٢٣٤ . البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٠٦ .

قريش إلى واحدة من ثلاث إلاّ قبلتها .

عمرو : أجل .

علي : أدعوك أن تشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وَتُسْلِم لرب العالمين .

عمرو : يابن أخي أخّرعني هذه .

علي : وأخرى ، ترجع إلى بلادك فإن يَكُ محمد ﷺ صادقاً كنت أسعد الناس به ، وإن يك كاذباً كان الذي تريد .

عمرو : هذا مالاتتحدَّث به نساء قريش أبداً ، كيف وقد قدرت على استيفاء ماندرت[1] ، فالثالثة ماهي ؟ .

علي : البراز .

عمرو (ضاحكاً) : إن هذه لخصلة ماكنت أظن أحداً من العرب يروعني بها ، لِمَ يابن أخي ؟ ماأحب أن أقتلك فإن أباك كان لي صديقاً ، وكنت له نديماً ، فإنّي أكره أن أسيل دمك .

علي : ولكني والله أحب أن أقتلك وماأكره أن أهريق دمكَ .

فغضب عمرو وأخذته الحميَّة واستعد للنزال .

---

(١) قاتل عمرو يوم بدر حتى أثبتته الجراحة ، فلم يشهد أُحُداً ، فنذر أن لايمس رأسه دهناً حتى يقتل محمداً ، فلما كان يوم الخندق خرج معلّماً بعلامة ليُعْرَف مكانه .

علي : كيف أقاتلك وأنت على فَرَسِكَ ؟ ولكن انزل معي .

فنزل عمرو عن فرسه ، وسل سيفه كأنه شعلة نار ، فعقر فرسه وضرب وجهه . وأقبل علي رضي الله عنه ، فاستقبله علي بدرقته ، فضربه عمرو فيها فقدَّها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجَّه ، فضربه علي رضي الله عنه على حبل عاتقه[1] فسقط عمرو مضرجاً بدمه ، وكبَّر المسلمون ، فلما سمع رسول الله ﷺ التكبير ، عرف أن علياً قتل عَمْراً .

وأقبل علي رضي الله عنه بعد قتله لعمرو بن عبد وُد على رسول الله ﷺ وهو متهلل ، فقال ﷺ : « كيف وجدت نفسك معه ياعلي ؟ » ، قال رضي الله عنه : لو كان أهل المدينة كلهم في جانب وأنا في جانب لقدرت عليهم .

ورجع من وصل الخندق من المشركين بخيلهم هاربين بعد مصرع عمرو ، فتبعهم الزبير بن العوام رضي الله عنه وضرب نوفل بن عبد الله فشقَّه نصفين ، ووصلت الضربة إلى كاهل فرسه ، فقيل له : ياأبا عبد الله ، مارأينا مثل سيفك ، فقال : والله ماهو بالسيف ، ولكنه الساعد[2] ، أي الساعد الذي يحمل السيف ، الفضل له ، والقوة قوته ، والعزيمة عزيمته ، لافضل السيف وقوَّته وعزيمته .

---

(١) حبل عاتقه : موضع الرداء من العنق ، مختار الصحاح ، ص ٤١١ .

(٢) السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٤٢ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٣٢ .

وكان شعار المسلمين : « حم ، لا يُنْصَرون » ، و « يا خيل الله »[1] .

وخرجت طائفتان للمسلمين ليلاً لا يشعر بعضهم ببعض ، ولا يظنون إلاّ أنهم العدو ، فكانت بينهم جراحة ، ثم تعارفوا بشعارهم ، فكفَّ بعضهم عن بعض ، فقال رسول الله ﷺ : « جراحكم في سبيل الله ، ومن قتل فهو شهيد » ، فاستدل الأئمة على أن من قتله مسلم خطأ في الحرب يكون شهيداً .

☆ ☆ ☆

ابن العَرِقَة يقطع بسهم أكحل سعد بن معاذ :

مرَّ سعد بن معاذ قرب حصن بني حارثة ، وكان من أحرز حصون المدينة ، وكانت أُم سعد وعائشة في الحصن ، مرّ سعد وعليه درع مُقَلَّصة قد خرجت منها ذراعه كلها ، وفي يده حربته يَرْفل[2] بها ويقول :

---

(١) ابن هشام : جـ ٣ ص ١٣٥ . عيون الأثر : جـ ٢ ص ٦٢ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٣٣ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٤٢ .

(٢) أرْفَل الرجل ثيابه ، إذا أرخاها وأطالها وجرَّها مُتَبختراً ، فالمراد هنا يتبختر مفتخراً بحربته ، لسان العرب : جـ ١١ ص ٢٩١ .

لبِّث قليلاً يشهد الهَيْجـا[1] حَمَل   لابأس بالموت إذا حـان الأَجل[2]

فقالت له أُمُّه : الحقْ بُنَيَّ فقد والله أخَّرت .

قالت عائشة رضي الله عنها : فقلت لها : ياأُم سعد ، والله لَوَدِدْتُ أن درع سعد كانت أسبغ[3] مما هي . قالت : وخفتُ عليه حيث أصاب السهمُ منه . فَرُمي سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل[4] .

وكان الذي رماه حِبَّان بن قيس بن العَرِقَة أحد بني عامر بن لؤي ، فلما أصابه قال : خذها مني وأنا ابن العَرِقَة[5] ، فقال له سعد : عرَّق اللهُ وجهك في النار ، اللهم إن كنتَ أبقيتَ من حرب قريش شيئاً فأبقني لها ، فإنه لاقومَ أحبُّ إلي أن أُجاهد من قوم آذوا رسولك

---

(١) الهَيْجَاءُ : الحرب . مختار الصحاح : ص ٧٠٣ .

(٢) الأجل : غاية الوقت في الموت ، والأجل : مُدَّة الشيء ، والآجلة : الآخرة ، والعاجلة : الدنيا ، لسان العرب : جـ ١١ ص ١١ .

(٣) شيءٌ سَابِغٌ أي كاملٌ وافٍ ، لسان العرب : جـ ٨ ص ٤٣٢ .

(٤) الأكحل : عِرْق في اليد وسط الذراع على الفَصْد ، وقيل الأكحل عِرْق الحياة يدعى نهر البدن ، لسان العرب : جـ ١١ ص ٥٨٦ .

(٥) ابن العَرِقة : العَرِقة هي قلابة بنت سعيد بن سعد بن سهم ، تكنى أم فاطمة ، سُمِّيت العَرِقة لطيب ريحها ، وهي جدة خديجة أم أُمها هالة ، الروض الأنف : جـ ٣ ص ٢٨٠ . وأُم سعد اسمها : كبشة بنت رافع .

وكــذَّبـوه وأخرجــوه ، اللهم وإن كنت وضعتَ الحرب بينـنــا وبينهم فاجعلها لي شهادة ولاتمتني حتى تُقِرَّ عيني من بني قريظة[1] .

واستمر القتـال طيلـة النهـار من سـائر جوانب الخنـدق ، وفي أول الليل قال المسلمون : ماصلينا الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ويقول رسول الله ﷺ : ولاأنا ، فاستدل مكحول والأوزاعي من هذا الحديث جواز تأخير الصلاة لعذر القتال ، مع أنَّه في الخندق لم يلتحم قتـالٌ ، إلا أنهم لا يأمنون هجوم العدو عليهم في كل لحظة .

فلما انكشف القتال ، أمر رسول الله ﷺ بلالاً فـأَذَّن وأقـام الظهر فصلى ، ثم أَقام بعد كل صلاة إقـامـة وصلى صلاة كأحسن مـا يصليهـا في وقتها ، وصلى الصحابة معه ﷺ مافاتهم من الصلوات .

☆ ☆ ☆

وخرجت طائفة من الأنصار ليدفنوا ميتاً منهم بالمدينة ، فصادفوا عشرين بعيراً لقريش محَّلـة شعِيراً وتبنـاً وتمراً ، حملهـا حيي بن أخطب شـدّاً لأزر قريش وتقويـة لهـا ، فـأتوا بهـا رسول الله ﷺ ، فتوسَّع بهـا

(١) ابن هشام : جـ ٣ ص ١٣٥ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٧٥ . الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٥ / ب . السيرة النبـويـــة لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٠٧ . الروض الأُنف : جـ ٣ ص ٢٨٠ . عيــون الأثر : جـ ٢ ص ٦٢ . الكامـل في التـاريـخ : جـ ٢ ص ١٢٥ . السيرة الحلبيـة : جـ ٢ ص ٣٤٣ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٣٣ .

أهل الخندق . ولما بلغ أبا سفيان ذلك قال : إن حيياً لمشؤوم قطع بنا مانجد مانحمل عليه إذا رجعنا .

وكر خالد بن الوليد بطائفة من المشركين يطلب غرة[1] للمسلمين ، فصادف أُسيد بن حضير على الخندق في مائتين من المسلمين ، فناوشهم[2] ساعة ، وكان من أولئك المشركين وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه ، فزرق[3] الطفيل بن النعمان فقتله .

وصارت قريش ترسل الطلائع ليلاً ، تطمع في الإغارة ، فأقام المسلمون في شدة من الخوف ، ودعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم وزلزلهم » .

ثم قال ﷺ في الناس : « ياأيها الناس لاتتمنّوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإن لقيتم العدو فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »[4] .

ثم دعا ﷺ بقوله : « ياصريخ المكروبين ، يامجيب المضطرين اكشف همي وغمي وكربي ، فإنك ترى مانزل بي وبأصحابي » .

---

(١) أي غفلة من المسلمين .

(٢) أي تقاربوا منهم ساعة .

(٣) أي رماه بمزراقة وهي الرمح القصير .

(٤) أي السبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيف في سبيل الله تعالى .

وقال المسلمون لرسول الله ﷺ : « هل من شيء نقوله ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ . قال : نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا »[1] .

وهذا الدعاء كان وهم في لباس الحرب ، العيون يقظة ، قالوه وهم في ميدان المواجهة بعد حفر الخندق ، مع دوريات الاستطلاع ، وكتائب الحراسة ، وصدٍّ وردٍّ الهجمات التي حاولت اجتياز الخندق .. ولم يكن دعاءً في محراب ، أهمل صاحبه الاستعدادات وأخذ الاحتياطات !! .

وأقام المشركون على الخندق قريباً من شهر ، ولم يكن بين القوم حرب إلا الرَّمي بالنبل والحصار .

وكان ﷺ يختلف إلى ثلمة في الخندق[2] ، فإذا أخذه البرد عاذ إلى قُبَّته فَأُدفئ ، ثم يخرج ليطمئن إلى الثلمة ، ثم قال : « ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثلمة الليلة » ، فسمع صوت السلاح فقال ﷺ : مَنْ هذا ؟ فقال سعد بن أبي وقاص : سعد يارسول الله أتيتك أحرسك ، فقال ﷺ : « عليك هذه الثلمة فاحرسها » . ونام رسول الله ﷺ ، ثم قام يصلي ، فقد كان إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة .

---

(١) البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١١١ .

(٢) الثُّلْمة : الخلل في الحائط وغيره ، مختار الصحاح : ص ٨٦ .

ثم خرج رسول الله ﷺ من قُبَّتـه ، فقـال : هـذه خيـل المشركين تطوف بالخندق ، ثم نادى ﷺ : ياعباد بن بشر ! قال : لبيك ، قـال ﷺ : « هـل معـك أحـد ؟ » ، قـال : نعم ، أنـا في نفر حـول قبتـك يارسول الله[1] . فبعثه ﷺ يطيف بالخندق وأعلمه بـأن خيل المشركين تطيف بهم . ثم قـال : « اللهم ادفـع عنـا شرَّهم وانصرنـا عليهم واغلبهم لا يغلبهم غيرك ، وإذا أبو سفيـان في خيل يطيفون بمضيق من الخنـدق فرماهم المسلمون حتى رجعوا .

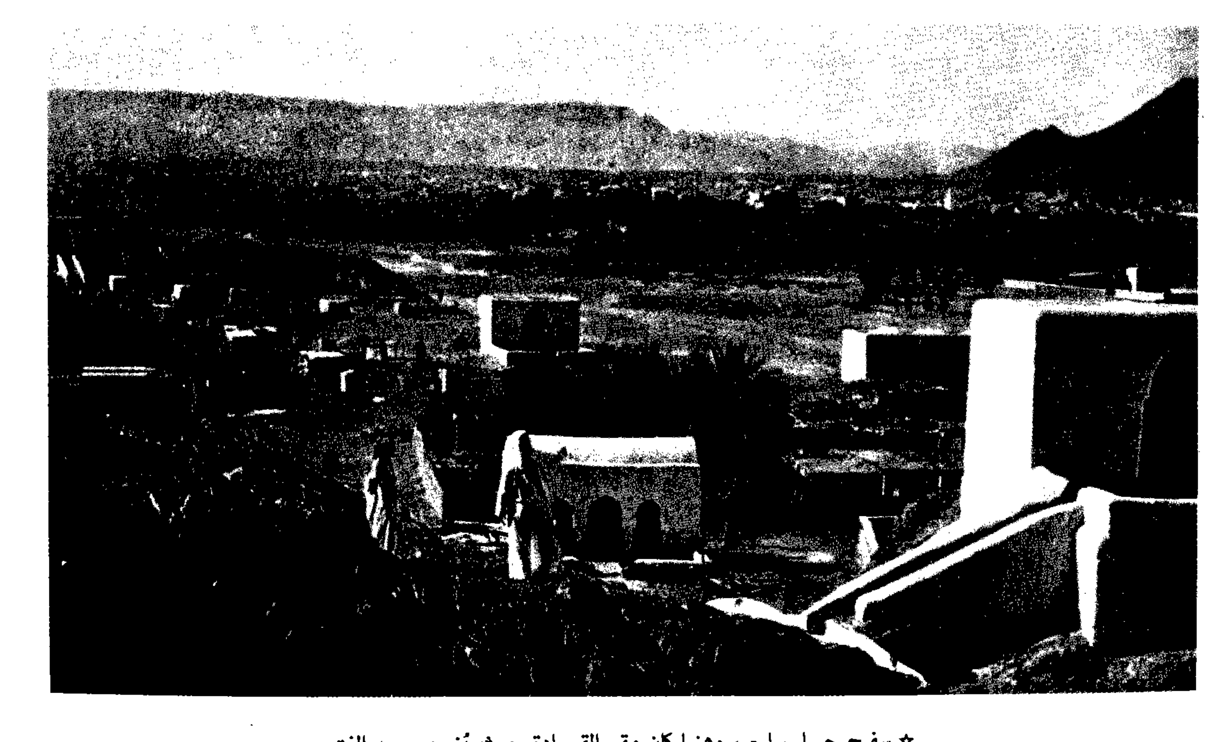
البُشْـــرى :

ونزل جبريـل عليـه السـلام فبشَّر النبي ﷺ أن الله يرسـل عليهم ريحاً وجنوداً . وأعلم رسول الله ﷺ أصحابه بذلك ، وهذه طبعـاً نبوءة لها أهميتها في مثل ظروف الخنـدق . وصـار يرفع ﷺ يـديـه قـائلاً : شكراً ! شكراً ! . أي شكراً لله على فرجـه ونصره ، وعُرِف السرور في وجهه الكريم ﷺ .



---

(١) وكان عباد بن بشر ألزم الناس لقبة رسول الله ﷺ يحرسها .



☆ سفح جبل سلع ، وهنا كان مقر القيادة حيث بُني مسجد الفتح ، وتظهر في الصورة ثلاثة مساجد هي : مسجد أبي بكر الصديق ، ومسجد علي بن أبي طالب ، ومسجد سلمان الفارسي رضي الله عنهم .

نُعَيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه
و
الحَرْبُ خدعة

☆ ﴿ يَـا أَيُّهـا الـذينَ آمَنُـوا اذكُرُوا نِعْمَـةَ اللهِ عَلَيكُم إذْ جَـاءَتكُم جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَـا وَكَـانَ اللهُ بِمَـا تَعْمَلُـونَ بَصيراً ﴾ .

[الأحزاب : ٩]

سار نُعيم بن مسعود الأشجعي مع قومه غطفـان وهو على دينهم ، وخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء ، فوجده يصلي .

لقد انسل نعيم تحت جنح الليل إلى المدينة ، وفي تقديرنا ما وصل إلى رسـول الله ﷺ إلا بعـد التعرُّف إليـه ، والتَّيقُّن ممـا يريـد ، وبعـد تجريده من سلاحه ، وسوقه تحت حراسة إلى مقر القيادة ، فـدوريـات المجاهدين المتحركة ، والمسند إليها أعمال الحراسة ، تعمل بنشاط وتيقُّظ من قبيل الغروب حتى طلوع الفجر .

وجلس نعيم في مقر القيادة ، فقـال لـه رسول الله ﷺ : مـا جـاء بك يا نُعَيم ؟ .

نعيم : جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق فأسلم ، ثم قال : إن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت .

فقال رسول الله ﷺ : « إنما أنت رجل واحد فخذّل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة[1] » .

« الحَرْبُ خُدْعَةٌ » :

جاء في كتاب (المجتنى)[2] : يريد أن المماكرة في الحرب أنفع من المكاثرة والإقدام من غير علم ، ومنه قول بعض الحكماء : « نفاذ الرأي في الحرب ، أنفع من الطعن والضرب » .

وقال الإمام النووي : « اتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد ، أو أمان ، فلا يجوز » .

وفي عبارة « الحرب خُدْعة » إشارة لطيفة إلى مكر العدو ، وفيها تحذير من خداعه أيضاً ، وأنه لا ينبغي التهاون به ، فقد يلجأ إلى الخداع ، فإن لم يتيقظ لذلك لم يأمن المسلم أن ينعكس الأمر عليه .

---

(١) فإن الحرب خُدْعَة ، أو فإن الحرب خَدْعة ، ولقصة نعيم راجع : الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٦ / ا ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٦٤ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٣٧ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٢١٤ . الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٢٥ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٤٦ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٣٦ .

(٢) لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، ص ٢٣ ، ط : دار الفكر ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

وفي الحديث أيضاً إشارة إلى استعمال الرأي في الحرب ، بل استخدام الرأي يسبق الشجاعة ، فلذا قصر الحرب على الخدعة في قوله ﷺ : « الحرب خُدْعَة » . فهو كقوله ﷺ : « الحج عَرَفَة » .

« الحرب خُدْعَة » : أي ينقضي أمرها بالمخادعة .

نَصَّت المادة ٢٤ من اتفاقية الحرب البريَّة لسنة (١٩٠٧) على أنه يجوز للدول المحاربة أن تلجأ في الحرب إلى الخدع بشرط ألا تصل إلى درجة الغدر والخيانة أو الإخلال بواجباتها[1] .

---

(١) راجع : الحرب في القانون الدولي العام ، للعميد بشير مراد ، ص ١١٣ ، ط ١٩٧٢ ، ومن الحيل والخدع المشروعة في الحروب :

- المناورات والحشد الكاذب لاجتذاب قوات العدو إلى مكان ما ، وتركيز الجهد على قواته في اتجاه آخر لحمله على تغيير مراكز قواته ، أو مفاجأته بغير ما يتوقَّع .
- التظاهر بالانسحاب واستدراج العدو إلى حيث يمكن القضاء عليه .
- مفاجأة العدو بالهجوم ليلاً أو في أنواء صعبة أو في مواقع لا يتوقَّع الهجوم منها .
- بث الألغام في طريق تقدُّمه .
- التخفِّي والاستتار عن أنظار العدو وأخذه على حين غرة .
- تضليله بإيصال معلومات كاذبة معيَّنة لحمله على تغيير مراكز قواته أو مفاجأته .
- تكوين طابور خامس في بلاد العدو والاستعانة به لتفسيخ الجبهة الداخلية للعدو عن طريق إثارة الفتن وبثّ الشائعات وروح التفرقة لتشتيت جهده وبعثرة قواه .
- الحرب النفسية ، وهي أساليب تؤدّي إلى إضعاف ثقة الخصم بنفسه ، وتوهين عزيمته ، وحل روحه المعنوية ، وإضعاف إرادة القتال لديه .
- السَّعي للحصول على المعلومات عن قوات العدو وحجمها وخططها بواسطة كافة وسائل الاستعلام بما فيها الجاسوسية .

وهذا النص الدولي المعمول به حالياً ، خلق إسلامي راعاه الإسلام منذ أيامه الأُولى .

نُعَيم عند بني قريظة :

قال نعيم : يا رسول الله ، إني أقول ما يقتضيه الحال ، وإن كان خلاف الواقع ، قال ﷺ : « قل ما بدا لك ، فأنت في حل » .

فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة ـ وكان نديماً لهم ـ فلما رأوه رحَّبوا به وعرضوا عليه الطعام والشراب ، فقال : لم آتِ لشيء من هذا ، إنما جئتكم تخوُّفاً عليكم لأُشير عليكم برأيي . يا بني قريظة ، قد عرفتم ودّي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم .

قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتَّهم .

نعيم : اكتموا عني .

قالوا : نفعل .

نعيم : لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع ، ولبني النضير من جلائهم وأخذ أموالهم ، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم[1] وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن

---

(١) ظاهرتم : أعنتم ، تَظَاهَرُون عليهم ، أي تتعاونون ، لسان العرب : جـ ٤ ص ٥٢٥ .

رأوا نهزة[1] أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلُّوا بينكم وبين بلدكم ، والرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ، سبعين رجلاً ، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى يناجزوه[2] .

فقالوا له : لقد أشرت بالرأي والنصح ، ودعوا له وشكروه ، وقالوا : نحن فاعلون .

نُعَيم : ولكن اكتموا عني . فقالوا : نفعل .

☆ ☆ ☆

نُعَيم عِنْدَ قُرَيْش :

ثم أتى نعيم قريشاً ، فقال لأبي سفيان ومن معه من أشراف قريش : قد عرفتم ودّي لكم وفراقي لمحمد ، وأنه قد بلغني أمر قد رأيت أن أبلغكموه لكم فاكتموا . قالوا : نفعل ، فقال : تعلمون أن معشر يهود - يعني بني قريظة - قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد من نقض عهده ، وقد أرسلوا إليه وأنا عندهم إنا قد ندمنا على ما فعلنا ،

---

(١) نهزة : نهزه نَهْزاً : دفعه وضربه ، والمراد هنا : « فإن رأوا فرصة أصابوها » ، لسان العرب : جـ ٥ ص ٤٢١ .

(٢) المُنَاجَزَةُ في القتال : المبارزة والمقاتلة ، لسان العرب : جـ ٥ ص ٤١٤ .

فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم ـ سبعين رجلاً ـ فنعطيكهم فتضرب أعناقهم وترد جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم ـ يعنون بني النضير ـ ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ .

فأرسل إليهم : نعم . فإن بعثت إليكم يهود يطلبون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً واحذروهم على أسراركم ، ولكن اكتموا عني ولا تذكروا من هذا حرفاً ، قالوا : لا نذكره .



نُعَيم عِنْد غَطَفان :

ثم خرج نعيم حتى أتى غَطَفان ، فقال : يا معشر غَطَفان ، إنكم أهلي وعشيرتي ، وأحب الناس إليّ ولا أراكم تتهموني . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتّهم ، قال : فاكتموا عليّ ، قالوا : نعم ، فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم .



النَّتَائِجُ :

أرسل أبو سفيان إلى رؤوس غطفان عكرمة بن أبي جهل ، فأخذ

منهم من يمثّلهم ، وسار بهم إلى بني قريظة ، وكان اليوم يوم سبت ، فقالوا لهم : إنّا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر ، فأعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ، ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسلوا إليهم أن اليوم يوم سبت ، وقد علمتم ما نال منا من تعدّي في السبت ، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً ـ سبعين رجلاً ـ فقالوا : صدق والله نعيم ! .

وفي رواية : أن بني قريظة أرسلت لقريش قبل مجيء رسل قريش إليهم رسولاً يقول : ما هذا التواني ، والرأي أن تتواعدوا على يوم يكونون معكم فيه ، لكنهم لا يخرجون حتى ترسلوا إليهم رهناً سبعين رجلاً من أشرافكم ، فإنهم يخافون إن أصابكم ما تكرهون رجعتم وتركتموهم ، فلم ترد قريش جواباً .

وجاء نعيم بني قريظة وقال لهم : كنت عند أبي سفيان ، وقد جاءه رسولكم فقال : لو طلبوا مني عَنَاقاً[1] ما دفعتها لهم .

فاختلفت كلمة الأحزاب ، وجاء حُيَي بن أخطب لبني قريظة فلم يجد منهم موافقة له ، وقالوا : لا نقاتل معهم حتى يدفعوا إلينا سبعين رجلاً من قريش وغطفان رهناً عندنا .

---

(١) العَنَاق : الأنثى الصغيرة من أولاد المِعْزى . لسان العرب : جـ ١٠ ص ٢٧٥ .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَليهِم رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها ﴾ :

وبعث الله ريحاً عاصفاً في ليلة شديدة البرد ، وهي ريح الصبا ، قال ﷺ : « نُصِرْتُ بالصبا ، وأُهلكت عاد بالدَّبور »[1] ، وفي لفظ : (نصر الله المسلمين بالريح) . فقطعت أطناب[2] خيام الأحزاب واقتلعتها وقذفتها بعيداً ، وكفأت قدورهم على أفواهها ، وأطفأت نيرانهم ، وصارت الريح تلقي الرجال على أمتعتهم .

وكانت ليلة شديدة البرد والريح ، في أصوات ريحها مثل الصواعق ، شديدة الظُلْمَة بحيث لا يرى الشخص إصبعه إذا مدّها . فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون : إن بيوتنا عورة ، وحيطانها قصيرة يُخشى عليها السرقة ، فَأْذَن لنا نرجع إلى نسائنا وأبنائنا وذرارينا ، فيأذن لهم ﷺ .

جاء في (تاريخ العرب والإسلام)[3] : « وصادفَ أن هبت في الليلة نفسها رياح شديدة باردة كفأت قدورهم ورمت بآنيتهم على

---

(١) والصَّبَا هي الريح الشرقية ، وكان إهلاك عاد بالدَّبور ، وهي الريح الغربية ، السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٥١ .

(٢) الطُّنْبُ والطَّنَبُ : حبل الخِباء والرواق ونحوهما ، لسان العرب : جـ ١ ص ٥٦٠ .

(٣) تاريخ العرب والإسلام : ص ٩٧ . كتاب في جامعة دمشق لطلاب السنة الثالثة ، كلية الآداب - قسم التاريخ .

الأرض ، فزاد تشتت كلمة الأحزاب ، وقويت رغبتهم في الرحيل عن المدينة » .

فالأمر مصادفة ، وأذكر هنا أيضاً شرح العبارة كما قدَّمها لنا مؤلف الكتاب عام ١٩٦٣ ، حيث قال : فتدخَّلَت عوامل الطبيعة ، فصادف أن هبت رياح شديدة باردة ..

وبعد تجاوز مافي العبارة من تمييع لنصر الله ، واستهتار لمعجزة خارقة أَيَّد الله بها نبيَّه ، نقول : عوامل الطبيعة ليست عاقلة مدركة حتى تتصرَّف هنا ولاتتصرف هناك ، فالريح التي هبَّت على الأحزاب - كما سيمر تفصيله - (لم تتجاوز عسكر المشركين) !! فَلِمَ تخرب الرياح هنا ولاتخرب هناك ؟ لِمَ تقلع وتُطفئ وتكفئ وتُلقي في معسكر الأحزاب ولاتفعل ذلك في جانب المسلمين ؟ ولو عملت الرياح في المنطقة كلها آنذاك ، وشمل أثرها المسلمين والأحزاب لقبلنا عبارة الكتاب التي ذكرنا . ولكنها لم تجاوز عسكر الأحزاب في شدتها وأذاها ، مع أن المسلمين بجوارهم ، وعلى بعد مئات الأمتار فقط ، يفصل بينهما الخندق وضفتاه !! ..

ويغنينا عن التعليق أكثر قوله عز وجل :

﴿ وَإِنْ يَرَوا كُلَّ آيَةٍ لايُؤمِنُوا بها ﴾[1] .

---

(١) الأنعام : ٢٥ .

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

﴿ وَإِنْ يَرَوا آيَةً يُعْرِضُوا ويَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ، وَكَذَّبُوا واتَّبَعُوا أَهْواءَهم وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾[2] .

استطلاع خبر الأحزاب :

وقال رسول الله ﷺ : « من يأتينا بخبر القوم ؟ » ، « ألا رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم ثم يرجع ، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة ؟ »[3] .

قال ﷺ ذلك ثلاثاً ، والزبير بن العوام رضي الله عنه يجيبه : أنا .

وعدل ﷺ عن إرسال الزبير ، واختار حذيفة بن اليمان ، لأن الزبير كان عنده حِدّة وشِدّة ، لايملك نفسه أن يُحْدِثَ بالقوم ماسَيُنْهَى عنه حذيفة ، ولأن حذيفة صاحب سرِّ رسول الله ﷺ ، الذي لايعلمه غيره .

---

(١) الأعراف : ١٣٢ .

(٢) القمر : ٢ و ٣ .

(٣) وفي لفظ : « يكون معي يوم القيامة » ، وفي لفظ آخر : « يكون رفيق إبراهيم يوم القيامة » . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٤٩ .

ودعا رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان[1] ، قال حذيفة : فَلَمْ أجد بُدّاً من القيام حيث فوه باسمي ، فجئته ﷺ فقال : « تسمع كلامي منذ الليلة ولاتقوم ؟ » ، فقلت : لاوالذي بعثك بالحق إنْ قدرت ، أي : ماقدرت على مابي من الجوع والبرد والخوف . فقال ﷺ : « اذهب حفظك الله من أمامك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك حتى ترجع إلينا » ، وقال ﷺ : « لابرد عليك حتى ترجع » .

قال حذيفة : فلم يكن لي بدّ من القيام حين دعاني .

وقال ﷺ : « اذهب فادخل في القوم » ، يقول حذيفة : « فقمت مستبشراً بدعاء رسول الله ﷺ كأني احتملت احتمالاً ، وذهب عني ماكنت أجد من الخوف والبرد ، وعهد إلي أن لاأُحدث حدثاً » .

كان رضي الله عنه جاث على ركبتيه عليه مرط[2] لامرأته مايجاوز ركبتيه ، فقام وقال لرسول الله ﷺ : والله مابي أن أُقتل[3] ، ولكن أخشى أن أُوسر .

---

(١) قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : ياأبا عبد الله ، رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟! قال : نعم ، يابن أخي ، قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد ، قال : والله لو أدركناه ماتركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا ، فقال حذيفة : ياابن أخي ، والله لقد رأيتُنَا مع رسول الله ﷺ بالخندق ، وصلّى هَوِينا ـ أي هزيعاً من الليل ـ ثم التفت إلينا ، فقال : مَنْ رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم ثم يرجع ـ يَشْرُط له رسول الله أنه يرجع ـ أدخله الله الجنَّة ؟ فما قام رجل ، وقص له ماحدث معه وهو معسكر الأحزاب .

(٢) المِرْط : الكساء من صوف وخز أو كتان يؤتزر به .

(٣) أي : والله مابي خوف أو خشية من أنْ أُقتل .

لقد خاف حذيفة من الأسر ، لأن الأسر فيه قيود العبودية مما سيمنعه من صلاته وواجباته والتزاماته .. ولم يخف من القتل ففي القتل الشهادة وثوابها .

فقال ﷺ : « إنَّك لن تؤسر ، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شِمَاله ومن فوقه ومن تحته » .

يقول حذيفة : فمضيت كأني أمشي في حمام[1] ، وقد أوصاني ﷺ أن لاأرمي بسهم ولاحَجَر ولاأضرب بسيف حتى آتيه ، فجئت إليهم ودخلت في معسكرهم ، فسمعت أبا سفيان يقول : يامعشر قريش ليتعرَّف كل امرئ منكم جليسه ، واحذروا الجواسيس والعيون ، فأخذت بيد جليسي على يميني وقلت : من أنت ؟ فقال : معاوية بن أبي سفيان ، وقبضت يد من على يساري وقلت : من أنت ؟ قال : عمرو بن العاص ، فعلت ذلك خشية أن يُفْطَن بي .

فقال أبو سفيان : يامعشر قريش ، والله إنكم لستم بدار مقام ، ولقد هلك الكراع والخف[2] ، واختلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي يكره ، ولقينا من هذه الريح ماترون ، فارتحلوا فإني مرتحل .

---

(١) مأخوذ من الحميم : الماء الحار ، وراجع لخبر حذيفة رضي الله عنه : ابن خلدون : جـ ٢ ص ٣١ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٨١ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٤٠ . الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٢٦ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٤٠ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٤٩ .

(٢) الكراع : الخيل ، والخف : الإبل .

ووثب على جَمَله فما حل عقال يده إلاّ وهو قائم[1] . فقال له عكرمة بن أبي جهل : رأس القوم وقائدهم تذهب وتترك الناس ؟ فاستحيا أبو سفيان وأناخ جمله ، وأخذ بزمامه وهو يقوده ، وقال : ارحلوا ، فجعل الناس يرتحلون وهو قائم .

ثم قال لعمرو بن العاص : ياأبا عبد الله نقيم في جُرَيْدة[2] من الجبل بإزاء محمد وأصحابه ، فإنا لانأمن من أن نُطلب . فقال عمرو بن العاص : وأنا أُقيم ، وقال لخالد بن الوليد : ماترى أَبا سليمان ؟ فقال : أنا أيضاً أُقيم ، فأقام عمرو وخالد في مائتي فارس ، وسار جميع العسكر .

قال حذيفة : ولولا عهد رسول الله ﷺ إلى حين بعثني أن لاأحدث شيئاً لقتلته - يعني أبا سفيان - بسهم .

وسمعت غطفان بما فعلت قريش فاشتدوا راجعين إلى بلادهم .

يقول حذيفة : فدخلت العسكر فإذا الناس في عسكرهم يقولون : الرحيل الرحيل لامقام لكم . والريح تقلبهم على بعض

---

(١) لما ركبه كان معقولاً ، فلما ضربه وثب على ثلاثة قوائم ، ثم حل عِقَاله ، والعِقَال : الحبل ، والجمع عُقُل ، لسان العرب : جـ ١١ ص ٤٥٩ .

(٢) الجُرَيْدَةُ : الأرض المستوية المتجرِّدة ، ومكان جَرْد وأجْرَد لانبات به ، لسان العرب : جـ ٣ ص ١١٥ .

أمتعتهم وتضربهم بالحجارة **والريح لاتجاوز عسكرهم** ، حتى قال طليحة بن خويلد الأسدي : **أما محمد فقد بدأكم بالسحر**[1]، **فالنجا النجا !!** فانهزموا من غير قتال ، فلما انتصفت الطريق إذا أنا بنحو عشرين فارساً مُعْتّمين ، فخرج إليّ منهم فارسان وقالا : **أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم .**

قال حذيفة : ثم أتيت رسول الله ﷺ فوجدته قائماً يصلي فأخبرته . أخبره برحيل القوم وانسحابهم ، وأخبره بما صنعت الريح التي لاتجاوز عسكر المشركين ، وأخبره بالملائكة جند الله وماعملوه في معسكر الأحزاب ، تصديقاً للآية الكريمة : ﴿ يَأَيُّها الذينَ آمَنُوا اذكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيكُم إذْ جَاءَتكُم جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوها وَكانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصيراً ﴾[2] .

فحمد رسول الله ﷺ وأثنى على الله بما هو أهل . ثم ضحك حتى بدت ثناياه في سواد الليل .

---

(١) يشبه قول طليحة هذا قول صاحب كتاب (تاريخ العرب والإسلام) الذي مر معنا ، فكلاهما حوّل المعجزة عن مسارها ، أحدهما قال : صادف أن هبت في نفس الليلة رياح شديدة ، فعوامل الطبيعة تصرَّفت بعقل ، والآخر قال : سحر بدأ به محمد ، فلا إقرار بالمعجزة ولاتسليم لها كما حدثت وكانت .

(٢) الأحزاب : ٩ .

يقول حـذيفـة : وعـاودني البرد ، فجعلت أُقَرْقِفُ[1] ، فـأومـأ إلي رسول الله ﷺ بيده ، فدنوت منه فسدل[2] علي من فضل شملته فنمت ، ولم أزل نائماً حتى الصبح ـ أي طلوع الفجر ـ فلمـا أن أصبحت ، ودخل وقت صلاة الصبـح ، قـال لي رسـول الله ﷺ : « قم يـانـومـان » ـ أي ياكثير النوم ـ ، فقام حذيفة إلى صلاته .



(١) القَرْقَفَةَ : الرِّعْدة ، يقـال : إني لأُقَرْقِفُ من البرد ، أي أرْعَدُ ، لسـان العرب : جـ ٩ ص ٢٨٢ ، وسبب رعدة حذيفة إنما قال له ﷺ : « لابأس عليك من برد حتى ترجع إليّ » .

(٢) سدل الثوب : أرخاه وأرسله ، لسان العرب : جـ ١١ ص ٣٣٣ .

غزوة بني قريظة

☆ « لاإلــه إلا الله وحــده لاشريك له ، له المُلْكُ وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، آيبُون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون . صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده »[1] .

غزوة بني قريظة قصاص عادل لخيانة علنية ، مع نقض معاهدة موقَّعة تعهَّدوا بموجبها دعم المسلمين ، إذا داهمهم عدو[2] ، فانحازوا إلى جانب العدو ، ومتى !؟ عندما رأو عشرة آلاف مقاتل حول المدينة ، فظنُّوا أن الأمر قد انتهى ، واسْتُؤصل المسلمون عن آخرهم .

والقوانين الدولية ، قديمها وحديثها تجيز المعاملة بالمثل ، المعاملة بالمثل مبدأ مقرر في القانون الدولي ، وهذا المبدأ في الإسلام مقيَّد بالفضيلة ، فإذا تعارض مع الفضيلة أُهمل واتُّبِعت الفضيلة ، فإذا قتل العدو الأطفال ، أو هتك الأعراض بقي المسلمون مقيَّدين بالفضيلة لايجارونه في رذائله .

---

(١) كان ﷺ إذا قَفَل من الغزو أو الحج أو العمرة يبدأ بالتكبير ، ثم يقول الدعاء أعلاه .

(٢) « وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه .. » ابن هشام : جـ ٢ ص ١٠٧ .

عاهد رسول الله ﷺ اليهود منذ وصوله إلى المدينة ، فلم يكن يرغب بقتال لذاته ، ولكن لما أرادوا استئصال المسلمين عن بكرة أبيهم ، فآن إذن القصاص المناسب ، والذي يتناسب مع ضخامة الجُرْم .

وفي العاقبة الغادر خاسر دوماً ، والناكث لعهده خاسر ، وهم الذين بدأوا العداء والإفناء واستئصال المسلمين بمالأتهم الأحزاب ، فكانت صفقة خاسرة ، لأنهم نبذوا عهودهم في أشد ساعات الحرج والشدّة .

☆ ☆ ☆

انصرفت الأحزاب ليلاً عن الخندق ، ولما أصبح رسول الله ﷺ عاد إلى المدينة ، وعاد معه المسلمون ووضعوا السلاح ، فلما كان الظهر نزل جبريل فقال : « أَوَقَد وضعت السِّلاحَ يارسول الله ؟ » ، قال : نعم ، فقال جبريل : « ماوضعت الملائكة السلاحَ بعد ، ومارجعت الآن إلاّ من طلب القوم ، إنَّ الله يأمرك يامحمد بالمسير إلى بني قُريظة ، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم » .

فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأَذَّن في الناس : « من كان سامعاً مطيعاً فلا يُصَلِّيَنَّ العصر إلا في بني قريظة » .

واستعمل ﷺ على المدينة ابن أُم مكتوم .

فلبس المسلمون السلاح ، فلم يأتوا بني قريظة حتى غربت الشمس . وأدرك العصرُ بعضَهم في الطريق ، فقالوا : لانُصَلِّي العصر حتى نأتيها ، وقال آخرون : بل نصلّي ، لم يرد منا ذلك . فلم يعنِّف رسول الله ﷺ واحداً من الفريقين ، لأن الفريق الأول أخذ بظاهر القول ، لأن أمرهم يومئذ بتأخير الصلاة خاصّ فيقدَّم على عموم الأمر بها في وقتها المقدَّر لها شرعاً .

قال أبو محمد بن حزم الظاهري في كتاب السيرة : « وعلم الله أنّا لو كنا هناك لم نُصَلِّ العصر إلا في بني قريظة ولو بعد أيام ! »[1] .

وقالت طائفة من العلماء : الفريق الثاني الذي صلّى لما أدركتهم الصلاة وهم في مسيرهم ، هم المصيبون ، لأنّهم فهموا أن المراد إنما هو تعجيل السير إلى بني قريظة لاتأخير الصلاة ، فعملوا بمقتضى الأدلة الدالة على أفضلية الصلاة في أوّل وقتها ، مع فهمهم عن الشارع ماأراد ، لذلك لم يعنِّف رسول الله ﷺ واحداً من الفريقين ، فكل في اجتهاده مصيب .

وحاصر رسول الله ﷺ بكتائب المسلمين بني قريظة بضع عشرة

---

(١) لأخبار غزوة بني قريظة راجع : الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٧ / ١ ، فتوح البلدان : ص ٣٤ . الطبري : جـ ٢ ص ٥٨١ . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٥٣ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٤٥ . الروض الأُنف : جـ ٣ ص ٢٦٧ . ابن هشام : جـ ٣ ص ١٤١ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٢٣ .

ليلـة ، وحُيَي بن أَخْطب داخـل الحصن ، واشتـد عليهم الحصـار ، فصرخوا بأبي لُبَابة رفاعة بن عبد المنذر ، وكانوا حلفاء الأنصار ، فقـال أبو لبابة : لاآتيهم حتى يأذن لي رسول الله ﷺ ، فقال له ﷺ : « قـد أذنتُ لك » .

فأتاهم أبو لُبَابة فبكوا إليه وقالوا : ياأبا لُبَابة ، ماذا ترى ، وبمـاذا تأمرنا ؟ فإنه لاطاقة لنا بالقتال ، ياأبا لُبَابـة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ ، قال : نعم ، وأشار بيده إلى حَلْقِه أنه الـذبح ، يريهم أنمـا يُراد بهم القتلُ .

قال أبو لُبَابة : فوالله مـازالت قَـدَمَـاي من مكانها حتى عرفتُ أني قـد خُنْتُ الله ورسولـه ، وقـال : والله لاأنظر في وجـه رسـول الله ﷺ حتى أُحْدِث لله توبـةً نصوحـاً يعلمهـا الله في نفسي . فرجع إلى المـدينـة فربط يديه إلى جذع من جـذوع المسجـد ، وقـال : لاأبرح مكاني حتى يتـوب الله عليَّ ممـا صنعت ، وأُعـاهـد الله ألاّ أطـأ بني قريظـة أبـداً ، ولاأُرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً .

قـال ﷺ حين علم بمـا صنعـه أبـو لُبَـابـة في نفسـه : « لـو جـاءني لاستغفرت له ، وإذ قد فعل هذا فلن أُحرِّكه من مكانـه حتى يقضي الله فيه مايشاء » .

وموقف أبي لُبَـابَـة هـذا ، ليس نفـاقـاً ، بل إن الجـو العـام الـذي استُقْبل به رقَّق قلبه : « فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليـه النسـاء

والصبيان يبكون في وجهه ، فرقّ لهم »[1] ، ولكن سرعان ماعاد إلى صحوته وحزمه ، واسترجع الأحداث التي مرّت حتى كانت هذه الغزوة فعلم أن قد أخطأ ، وكان من المفروض أن يقول لهم ردّاً على استفساراتهم : لقد خنتم الأمانة ، ونقضتم العهود ، فتحملوا سوء عملكم بتسليم لايقيّده شروط ووعود .

والأحداث التي تلت درس عظيم في فقه التوبة الصادقة ، ندم واستغفار ، وعقاب فرضه على نفسه ، « وأعاهد الله ألاّ أطأ بني قريظة أبداً ، ولاأُرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً » .

وبقي أبو لُبَابة مرتبطاً ست ليال ، وفي رواية أنه مكث عشرين ليلة مرتبطاً إلى الجذع ، تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحلّه حتى يتوضّأ ويصلي، ثم يرتبط ، حتى نزلت الآية : ﴿ وَآخَرُونَ اعترَفُوا بِذُنُوبِهِم خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيهم إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيم ، خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرهُم وَتُزَكِّيهِم بها وَصَلِّ عَلَيهِم إنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُم واللهُ سَمِيعٌ عَلِيم ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيأخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوابُ الرَّحيم ﴾[2] .

---

(١) السيرة الحلبية ، جـ ٢ ص ٣٥٨ ، الروض الأُنف ، جـ ٢ ص ٢٦٨ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية ، جـ ٢ ص ١٥٠ .

(٢) سورة التوبة : ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤ .

فلمـا بُشِّر بنزول التوبـة ، قـال : والله لايحلّني منـه إلا رسـول الله ﷺ[1] ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الفجر حَلَّه من رباطه .





نموذج لحصون اليهود في بني قريظة

---

(١) في الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٧ / ب : نزلت توبتـه والنبي ﷺ في بيت أُم سلمـة ، قـالت : سمعت رسول الله ﷺ عند السحر وهو يضحـك ، قلت : مِمَّ تضحـك أضحـك الله سنـك ؟ قـال : تِيبَ على أبي لبابة ، قالت : قلت : أفلا أُبشره يارسول الله ؟ قال : بلى إن شئتِ ..

ولما أيقن بنو قريظة أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، قال كعب بن أَسد : يامعشر يهود ، قد نزل بكم من الأمر ماترون ، وإني عارض عليكم خِلالاً ثلاثاً فخذوا بما شئتم منها ، قالوا : وماهُن ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدّقه ، فوالله لقد تبيَّن لكم أَنَّه لنبيّ مُرْسل ، وأنه للَّذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنون به على دمائكم وأموالكم وأبناءكم ونسائكم ، قالوا : لانفارق حُكْمَ التوراة أبداً ولانستبدل به غيره .

قال : فإذا أبيتم عليَّ هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مُصَلِّتين السيوف لم نترك وراءنا ثَقَلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نَسْلاً نخشى عليه ، وإن نَظْهر فلعمري لنجدن النساءَ والأبناء .

قالوا : أنقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟! .

قال : فإن أبيتم عليَّ هذه ، فالليلةُ ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أَمِنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نُصبْ من محمد وأصحابه غرّةً .

قالوا : أنفسد سَبْتَنا ونُحْدث فيه مالم يُحدث فيه من كان قبلنا ، إلاّ من قد علمتَ فأصابه مالم يخفَ عنك من المسخ .

فقال : مابات رجل منكم منذ ولدته أُمه ليلةً من الدهر حازماً .

وصاح عليّ بن أبي طالب وهم محاصرو بني قريظة : ياكتيبة الإيمان ، وتقدَّم هو والزبير بن العوام وقال : « والله لأذوقن ماذاق حمزةُ أو أقتحم حصنهم »[1] ، فقالوا : يامحمد ننزل على حكم سعد بن معاذ ، فأرسل ﷺ إلى سعد ، فَحُمِل على حمار ، وتواثبت الأوس فقالوا : يارسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ، وقد فعلتَ في موالي إخواننا بالأمس ماقد علمتَ ، يعنون عَفْوه عن بني قينقاع حين سأله فيهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول .

فقال ﷺ : « يامعشر الأوس ، ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ » .

قالوا : بلى ، قال ﷺ : « فذلك إلى سعد بن معاذ » .

فلمَّا حكَّمه ﷺ في بني قريظة ، أتاه قومه فحملوه من خيمة رُفَيدة ، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون له : يا أبا عمرو أَحْسِن في مواليك ، فإن رسول الله ﷺ إنَّما ولاَّك ذلك لتُحسن فيهم . فلما أكثروا عليه قال : قد آن لسعد ألاّ تأخذه في الله لومة لائم ! .

فلما انتهى سعد إلى رسول الله والمسلمين قال ﷺ : « قوموا إلى

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير جـ ٣ . ص ٢٣٤ .

سيدكم » ، فقاموا إليه ، فقالوا : يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاّك أَمْرَ مَواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد : عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمتُ ؟! قالوا : نعم ، قال : وعلى من ها هنا ؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ ، وهو مُعْرِض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له ، فقال رسول الله ﷺ : نعم ، قال سعد : فإني أَحْكُم فيهم أن يُقتل الرجالُ ، وتُقسم الأموالُ ، وتُسبى الذراري والنساء .

فقال ﷺ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أَرْقعة[1] » .

ثم استنزل المسلمون بني قريظة من حصنهم ، فحبسهم رسول الله ﷺ في دار نَسِيبة بنت الحارث بن كُرز بن حبيب بن عبد شمس ، ثم خرج ﷺ إلى سوق المدينة فَخَنْدَقَ بها خنادق ، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق ، وفيهم حييّ بن أَخْطب ، وكعب بن أسد رأس القوم ، وهم ستمائة أو سبعمائة[2] .

ولما أُتي بحييّ بن أَخْطب وعليه حُلّة له فُقّاحِيّة[3] قد شقّها عليه من كل ناحية قدر أنملة لئلا يُسْلَبها ، مجموعةً يداه إلى عنقه بحبل ، فلما نظر

---

(١) الأرقعة : السموات ، واحدها : رقيع .

(٢) وفي رواية أربعمائة فقط ، كما رواه الليث عن أبي الزبير عن جابر : إنهم كانوا أربعمائة .

(٣) الفقاح : الزهر إذا انشقت أكمته ، والمراد أنها كانت تضرب إلى الحمرة ، قال ابن هشام : فقاحية ضرب من الوشي .

إلى رسول الله ﷺ قال : أما والله ما لُمْتُ نفسي في عداوتك ، ولكنه من يَخْذِلِ الله يُخذل ! ثم جلس فضُربت عنقه . وكان مَن قُتِلَ مِنْ بني قريظة كل من بلغ الحُلُم فقط ، ولم يُقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة .

قالت عائشة رضي الله عنها : والله إنها لعندي تحدِّث معي تضحك ظهراً وبطناً ، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق ، إذ هتف هاتف باسمها ، أين فلانة ؟ قالت : أنا والله ، فقلت لها : ويلك مالك ؟ قالت : أُقتل ! فقلت : وَلِمَ ؟ قالت : لحدثٍ أحدثته ، فانطلق بها فضُربت عنقها .

قتلت هذه المرأة واسمها : نباتة امرأة الحَكَم القُرَظي لأنها طرحت الرّحا على خَلاَّد بن سُوَيد الخزرجي فقتلته(١) ، فقتلها رسول الله ﷺ به .

ثم قُسِّمت أموال بني قريظة ونساؤهم وأبناؤهم بعدما أُخرج الخُمْس(٢) ، وبعث ﷺ سعيدَ بن زيد بسبايا من بني قريظة إلى نجد فابتاع بها خيلاً وسلاحاً .

---

(١) قال ابن إسحق : واستشهد من المسلمين يوم بني قريظة خَلاَّد بن سُويد بن ثعلبة بن عمرو الخزرجي ، طُرِحت عليه رحاً فَشَدَختْه شدخاً شديداً . ومات أبو سِنان بن محصن بن حَرْثان من بني أسد بن خزيمة والمسلمون محاصرون بني قريظة ، فدفن هناك .

(٢) وفي حكم سعد : « وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار ، إني أحببت أن يستغنوا عنكم » ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٥٤ و ١٥٥ .

وفي غزوة بني قريظة ، نزل قوله عز وجل :

﴿ وَرَدَّ اللهُ الـــذينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِم لَمْ يَنَـــالُـوا خَيْراً وَكَفى اللهُ المُؤْمِنينَ القِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيّـاً عَزِيزاً ، وَأَنْزَلَ الـذينَ ظَـاهَرُوهُم[1] مِن أَهْلِ الكِتَـابِ من صَيَـاصِيهم[2] وَقَـذَفَ في قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقـاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ، وَأَورَثَكُم أَرْضَهُم وَدِيارَهُم وَأَمْوالَهُم وَأَرْضـاً لَمْ تَطَؤُهَـا وَكانَ اللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديراً ﴾[3] .

ومن الملاحظ : أن اليهود لم يسألوا رسولَ الله والمسلمين : لماذا هذا الحصار ؟ ولماذا هذه الحرب ؟ وبالتالي : لمـاذا هـذا القصـاص ، وهـذا العقاب ؟!؟ .

والجواب على هذا التساؤل في عبـارة واحـدة موجزة قصيرة : أنَّهم أدرى بما صنعوا ؟ .

☆ ☆ ☆

وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه :

رمى حِبَّان بن العَرقة سعداً بسهم فأصاب أكحلـه أيـام الخنـدق ،

---

(١) استظهر به : استعان ، وظَهَرْت عليه : أعنته ، وتظاهروا عليه : تعاونوا ، لسان العرب : جـ ٤ ص ٥٢٥ .

(٢) الصياصي : الحصون وكل شيء امتَنِعَ به وتُحَصِّنَ به فهو صيصة ، لسان العرب : جـ ٧ ص ٥٢ .

(٣) الأحزاب : ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ .

فدعا الله ألاّ يميته حتى يقرّ عينه في بني قريظة حين نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهود والمواثيق والذمام ، ومالوا عليه مع الأحزاب ، وبقي في خيمة رفيدة ترعاه وتقدّم له العناية اللازمة .

وقبل بنو قريظة حكم سعد فيهم لما يرجون من حُنُوِّه عليهم وإحسانه وميله إليهم ، ولم يعلموا أنه بعد إسلامه من ناحية ، وخيانتهم من ناحية ثانية أصبح يُبْغِضُ فعالهم ، ولن تأخذه في الحقّ لومة لائم .

أُحضر سعد من خيمة رفيدة ، وحكم فيهم حكمه ، وأُعيد إلى خيمة رفيدة ثانية ، فدعا الله عز وجل أن تكون له شهادة ، فانفجر جرحه فاحتضنه رسول الله ﷺ ، فجعلت الدماء تسيل على رسول الله ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : وانكِسَار ظهراه ! فقال ﷺ : مَهْ ، فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون[1] .

وازداد الجرح نزفاً في الليل ، فلم يزل يخرج منه الدم حتى استشهد رضي الله عنه ، وأتى جبريل رسول الله ﷺ حين قُبِضَ سعد بن معاذ من جوف الليل ، فقال : يا محمد ! من هذا الميت الذي فُتِحَت له أبواب السماء ، واهتزَّ له العرش[2] ؟ فقام ﷺ سريعاً يجر ثوبه إلى سعد فوجده قد مات رضي الله عنه .

---

(١) أُسد الغابة : جـ ٢ ص ٣٧٥ .

(٢) لحب لقاء الله سعد بن معاذ ، وقيل : إنما يعني اهتز له السرير « ورفع أبويه على العرش » ، تفتحت أعواد السرير عند وفاته .

قالت عائشة رضي الله عنها : فوالذي نفس محمد بيده ، إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي ، وكانوا كما قال الله عز وجل : ﴿ رُحماءُ بينهم[1] ﴾ ، قال علقمة : يا أُمه ، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع ؟ قالت رضي الله عنها : كانت عينه لا تدمع على أحَد ، ولكنه كان إذا وجَد[2] فإنما هو آخذٌ بلحيته .

وحزن المسلمون عليه حزناً شديداً .

وقال المنافقون لما حُملَت جنازة سعد : ما أخفَّ جنازته ! وذلك لحكمه في بني قريظة ، فقال ﷺ : « لا ، ولكن الملائكة تحمَّلته »[3] .

وقالت أم سعد كبيشة بنت رافع بن معاوية الخزرجية حين احتُمِل على نعشه تندبه :

وَيْلُ أُمِّ سَعْدٍ سَعْدا ... بَرَاعَةً ونَجْدا[4]
وَيْلُ أُمِّ سَعْدٍ سَعْدا ... صَرَامَةً وَجِدّا[5]
وَسُؤدَداً ومَجْدا ... وَفَارِساً مُعَدّا

(١) ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالذينَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم .. ﴾ ، الفتح : ٢٩ .

(٢) وجَد : حزن ، لسان العرب : جـ ٣ ص ٤٤٦ . وورد في أُسد الغابة : جـ ٢ ص ٣٧٥ : « ولما دفنه رسول الله ﷺ وانصرف من جنازته ، جعلت دموعه تُحَادِرُ على لحيته ويده في لحيته » .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٤٨ .

(٤) البيت في أُسد الغابة : جـ ٢ ص ٣٧٥ .

(٥) في السيرة النبوية لابن كثير : « صَرَامَةً وحَدّا » .

سَــدَّ بِــهِ مَسَــدَّا   يَقــدّهــا مــا قَــدّا

فقال ﷺ : « كلٌّ نائحة تَكْذِب إلا نائحة سعد بن معاذ »[1] .

وكانت وفاته رضي الله عنه بعد انصراف الأحزاب بنحو من خمس وعشرين ليلة ، في أواخر ذي القعدة ، أوْ أوَائل ذي الحجة من سنة خمس .

رحم الله سعداً فقد صاغ حُكْمَه بما يجب أن يصاغ حُكْمٌ بعد الغدر والخيانة ، وبما يمليه العدل والمنطق ، فأسكت العدل ، وأخمد المنطق حجج الناكثين الغادرين .



(١) هـذا النص كما ورد في السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٥٠ . وفي أُسد الغابة : جـ ٢ ص ٣٧٦ : « كل نادبة كاذبة إلا نادبة سعد » .

خاتمة

« الآنَ نغزوهم ولا يغزوننا »

☆ « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم » .
رسول الله ﷺ

وانسحبت قريش ومن معها[1] ، فأرسل القائد العام لجموع الأحزاب - أبو سفيان بن حرب - كتاباً لرسول الله ﷺ فيه :

باسمك اللّهم ، فإني أحلف باللات والعزّى وأساف ونائلة وهبل[2] ، لقد سرت إليك في جمع وأنا أريد أن لا أعود إليك أبداً حتى استأصلكم ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، واعتصمت بالخندق ، لقد اعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها ، وإنما تعرف ظل رماحها

---

(١) بعد أن أقاموا على الخندق بضعاً وعشرين ليلة ، قريباً من الشهر ، الطبري : جـ ٢ ص ٥٧٢ .

(٢) من معبودات العرب الوثنيين : هُبَل أعظم أصنام قريش شأناً ، وكان من العقيق الأحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، فصنعت له قريش يداً من ذهب . (وأساف وإساف : اسم صنم لقريش ، وإساف ونائلة صنمان كانا لقريش وضعهما عمرو بن لحَيٍّ على الصفا والمروة وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة) ، لسان العرب : جـ ٩ ص ٦ . ومَنَاة : إلهة القضاء عندهم ، ولا سيما قضاء الموت ، واللاّت : بالطائف ، وهي صخرة مربّعة أُقيم عليها بناء ، والعُزّى : تمثل شجيرات في وادي نخلة ، وسُوَاع : بأرض ينبع ...

وشبا[1] سيوفها ، وما فعلتَ هـذا إلاّ فراراً من سيوفنـا ولقـائنـا ، ولـك مني يوم كيوم أُحُد .

فأرسل له ﷺ جواباً فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أمـا بعـد : من محمد رسول الله ، إلى صخر بن حرب ، فقدْ أتاني كتابـك ، وقـديمـاً غرّك بالله الغرور[2] ، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا وأنت لا تريـد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر اللهَ يحول الله بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة ، وليأتين عليـك يوم أكسر فيـه اللات والعزّى وأسـافـاً ونـائلـة وهبل حتى أُذكرك ذلك يا سفيه بني غالب » .

وحقّق الله عز وجل لنبيِّه ما أراده ، وكسر اللات والعزّى وغيرهما من الأصنام عند فتح مكة ، وإخبارِ رسول الله ﷺ بـذلـك مقـدَّمـاً ، دليل من دلالات نبوَّته الصادقة ﷺ .



(١) شبا السيوف : حدُّ طرفها ، لسان العرب : جـ ١٤ ص ٤١٩ .

(٢) الغَرور : ما غرّك من إنسان وشيطان وغيرهما ، والغُرور : (بالضم) الأباطيل ، لسـان العرب : جـ ٥ ص ١٢ .

من نتائج الخندق

☆ استشهد خلال غزوة الخندق ستة شهداء من المسلمين فقط ، هم :

من بني عبد الأشهل : سعد بن معاذ ، وأنس بن أوس بن عتيك ، وعبد الله بن سهل .

ومن بني جشم من الخزرج ، ثم من بني سلمة : الطفيل بن النعمان ، وثعلبة بن عنمة[1] .

ومن بني النجار : كعب بن زيد .

وقُتِل من المشركين :

١ ـ منبه بن عبيد العبدري .

٢ ـ نوفل بن عبد الله المخزومي .

٣ ـ عمرو بن عبد وُد العامري .

---

(١) يضاف إليهما الشهيدان القرينان اللذان قتلا قبيل الاشتباكات كما مرّ معنا .

وبـذلـك يكون رسول الله ﷺ قـد دفع خطر الأحزاب ، وفـوَّت عليهم ما جاؤوا إليه ، بأقل خسائر ممكنة من الطرفين .

☆ ومن الملاحـظ أن الجو العـام قبيل غـزوة الخنـدق وأثنـاءهـا ، يختلف اختلافاً كلياً عن أجواء غزوة أُحد ، فهنا ـ في الخندق ـ التفـاؤل والبشر والحديث عن النصر الأكيـد ، رغم الخطر المحـدق ، وهنـاك ـ في أُحد ـ الحذر والتنبيه والتركيز على عدم العصيان والمخالفة .

في الخنـدق ، النصر الأكيـد يلوح في الأُفق ، وانهزام الأحزاب أَمر قرّره رسول الله ﷺ مسبقاً وكأنه واقع ملموس :

١ ـ أمر ـ ﷺ ـ المسلمين بالجد ، ووعدهم النصر إن هم صبروا .

٢ ـ « أُعطيت مفـاتيح اليمن ، أُعطيت مفـاتيح الشـام والمغرب ، أُعطيت مفـاتيح فـارس ، هـذه فتوح يفتحهـا الله بعـدي يـا سلمـان ، أخبرني جبريـل أن أُمتي ظـاهرة عليهـا ، فـأبشروا ! » . فـاستبشر المسلمون .

٣ ـ « أَبشروا بعـون الله ونصره ، إني لأرجـو أن أطـوف بـالبيت العتيـق وآخـذ المفتـاح ، وليهلكن كسرى وقيصر ، وإذا هلـك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » .

٤ ـ « والذي نفسي بيده لَيُفَرَّجَن عنكم ما ترون من الشدة » .

٥ ـ حتى وبعد نقض بني قريظة عهدهم مع المسلمين : « أبشروا يا معشر المسلمين نصرة الله تعالى وعونه » ، « أبشروا بفتح الله ونصره » .

٦ ـ « إن الله يرسل عليهم ريحاً وجنوداً .. شكراً .. شكراً ! » وعُرِف السرور في وجهه الكريم ﷺ .

وأتبع ﷺ كل هذه البشائر بنبوءة حقَّقها الله عز وجل عام ثمانية من الهجرة عند فتح مكة : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم »[1] .

وكان **للمرأة العربية المسلمة** دورها الطيب الفعال في غزوة الخندق ، لقد حملت تربية عالية ، وخُلُقاً رفيعاً ، وطهراً وعفافاً ، وخاضت أحداثَ الخندق بهذه الصفات بكل جدارة وفعالية :

أ ـ المرأة المسلمة الممرضة : (رُفَيْدة الأنصارية[2]) :

وكان رسول الله ﷺ حين أصاب سعداً السهمُ بالخندق ، قال لقومه : « اجعلوه في خيمة رُفَيدة حتى أعوده من قريب » ، وكانت خيمة رفيدة في مسجده ﷺ ، حيث داوت رفيدة الجرحى ، محتسبة نفسها على خدمة جرحى المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ يمرُّ بسعد وهو

---

(١) السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٥١ . السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٢١ . الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٢٦ .

(٢) وقيل رُفَيدة الأسلمية ، أي أنصارية من أسلم .

في خيمــة رفيــدة فيقــول : « كيف أمسيت ؟ وكيف أصبحت ؟ » ، فيخبره .

٢ ـ المرأة المسلمة المقاتلة :

صفيــة بنت عبـد المطلب التي أحبطت تطـويقـاً مخططـاً لــه ، وقصفت ظهر بني قريظة عندما قتلت العين المرسل لاستطلاع الآطـام التي حلَّت بهـا النسـاء المسلمـات وأولادهن ، وكما مرّ معنـا ، أيقنت بنـو قريظة عنـدهـا أن المسلمين قـد خصَّصوا جزءاً من قواتهم لحمـايـة الظعن والمـؤخرة ، فعــدلـوا عن القيــام بــأي عمـل حربي في مــؤخرة الجيش الإسـلامي ، فقمعـوا في حصـونهم لا يفكِّرون بـالخروج خـوفـاً ورعبـاً وتحسُّباً .

٣ ـ المرأة المسلمة مطْعِمَةُ الجند :

كما قدَّمت المرأة المسلمة الطعام للمجـاهـدين وهي على يقين أن مـا تقوم به واجب عليها تبتغي منه الأجر والثواب ، والعون لجند الله :

ـ ابنة بشير بن سعد أُخت النعمان بن بشير ، جـاءت بمـا تملـك من التمر .

ـ زوجة جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، صنعت الطعام لرسول الله ﷺ ، فأكل منه جند الخندق كلُّهم .

ـ أم عامر الأشهلية صنعت حيساً أكل منه رسول الله ﷺ ، ثم أكل منه أهل الخندق عن آخرهم .

☆ ☆ ☆

وأخيراً ..

لقد أدهش الخندق قريشاً ، فهو الذي جعل عنصر المفاجأة في المعركة إلى جانب المسلمين ، وهو الذي حيَّر الأحزاب وأدهشها كيف يصنعون أمامه ، وبماذا يتصرَّفون ؟ .

وسيكون انتصار الخندق وانتصار بني قريظة ، وغيرهما من انتصارات لاحقة سبباً لإقبال أفراد من القبائل المحيطة بالمدينة المنورة إلى الإسلام ، وكان واحدهم بعد إسلامه يعود إلى قومه داعياً بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الدين الجديد ، لا سيما وأن القبائل شعرت بعد الخندق أن المبادأة أضحت بيد المسلمين . وهذه حقيقة .. فسينتقل المسلمون من انتصار إلى انتصار حتى يضم الإسلام تحت جناحيه أرجاء الجزيرة العربية ، ضم توحيد وعدالة وإلفة .

والحمد لله رب العالمين



المحتوى

☆ ☆ ☆